أَمِن ، الدّال على الأمن والطّمأنينة . إنّ جملة أمن فى القول : ﴿ فإن أَمِن بعضكم بعضاً ﴾ رشّحت لمجئ القول : ﴿ فليؤد الّذى أؤتمن ﴾ إنّ المقصود فليؤدّ المستدين دينه . ولكنّ القرآن الكريم يريد أن يكرّم المدين برفع مستواه إلى مستوى الشّخص الأمين الّذى يأتمنه النّاس على أموالهم ودمائهم وأعراضهم . وها هو ذا الدّائن يأتمنه فلا يقبض منه رهناً ولا يسأله رهناً . وإنّ عدم قبض الرّهن فى السّفر معناه عدم كتابة الدّين أصلاً لعدم وجود وسائل الكتابة ، وبناءً على ذلك فإنّ ثمّة وسيلةً واحدة يتمّ عن طريقها استرداد الدّين والحصول على الحقوق وهذه الوسيلة الوحيدة هى أمانة المدين ، ولهذا ضربت الآية الكريمة على هذا الوتر الحسّاس ورفعت من مستوى المدين إلى درجة الشّخص المؤتمن الّذى يضع النّاس لديه أموالهم فى هيئة الأمانة . وإنّ المال الّذى أخذه المدين فى السّفر دون قبض الرّهن ودون الكتابة والإشهاد بمثابة المال الّذى يودع أمانةً عند أفرادٍ من النّاس قلائل ثقةً من النّاس فى دين هؤلاء الأفراد واطمئناناً إلى أمانتهم . بل إنّ الضّمير فى القول : ﴿ فليؤد الّذى أؤتمن أمانته ﴾ يعود إلى المدين وليس إلى الدّائن لأنّ المال مال الدائن ، ولكنّ الآية الكريمة كما عرفنا تثير فى المدين أمانته ونخوته وشهامته ومروءته كى يعيد الأموال إلى أصحابها ومن ثمّ تنسب الأمانة إليه باعتبارها لديه وباعتبار سلامة هذه الأمانة متوقّفةً على إعادتها إلى من ائتمنه عليها وباعتبار المدين — حقيقةً — قوىّ الموقف لانعدام الضّوابط الماليّة بالضّرورة .

ولا تكتفى الآية الكريمة حينما تضرب على وتر الأمانة بإثارة أمانة المدين وتهييج نخوته ومروءته إنّما تضيف إلى ذلك الأمر بتقوى الله تعالى : ﴿ وليتّق الله ربّه ﴾ وهذا التّعبير ذاته والّذى يستعمل وقت سداد الدّين هو الّذى تستعمله الآية الكريمة السّابقة وقت أخذ الدّين : ﴿ وليُملِل الّذى عليه الحقُّ وليتّق الله ربّه ﴾ ولا زلنا بصدد لفظ الجلالة ﴿ الله ﴾ الدّالّ على العموم وعلى العناية بتوحيد الله تعالى باعتباره أهمّ مطلوب ، ولا زلنا بصدد لفظ الرّب الدّالّ على الخصوص وعلى العناية بتوحيد الرّبّ جلّ وعلا مربّى الإنسان بنعمه وآلائه الّتى لا تُحْصى ووجوب شكر النّعمة بامتثال أوامر الله تعالى . وممّا قوّى من عموم معنى لفظ الجلالة : « الله » وزاده اتّساعاً ، وممّا قوى من خصوص

معنى لفظ الرّبّ ووجوب الشّكر لله تعالى مجيء لفظ الرّب مضافاً إليه ضمير الغائب العائد إلى المدين على غرار عودة ضمير الأمانة من القول : « أمانته » إليه . إنّ الأمانة حينما توجد مقروناً بها تقوى الله تعالى فإنّ الدّيون تسدّد والأمانات تردّ .

وإذا كنّا قد فهمنا بشأن القول فى الآية الكريمة السّابقة : ﴿ ولا يأب الشّهداء إذا ما دعوا ﴾ ولا يمتنع الشّهداء إذا ما دعوا لتحمّل الشّهادة أوّلاً لإدائها ثانياً ، وفهمنا من القول فى الآية الكريمة السّابقة كذلك : ﴿ ولا يضارّ كاتبٌ ولا شهيد ﴾ بأنّ المقصود النّهى عن إيصال الضّرر إلى الكاتب والشّهيد ، فإنّا نستطيع أن نفهم من القول فى الآية الّتى نحن بصددها : ﴿ ولا تكتموا الشّهادة ﴾ ولا تخفوا الشّهادة ولا تمتنعوا عن أدائها وإقامتها لأنّ فى الكتمان إلحاقَ أذًى بصاحب الحقّ . وبهذا يكون الشّهداء قد نُهُوا فى الآية الكريمة السّابقة عن إلحاق الأذى بصاحب المال بالامتناع عن حمل الشّهادة وفى هذه الآية الكريمة التّالية نهوا عن إلحاق الأذى بصاحب المال بالامتناع عن أداء الشّهادة . وهذا الرّأى قوّةٌ لما ذهبنا إليه من كون القول فى الآية الكريمة السّابقة : ﴿ ولا يأب الشّهداء إذا ما دعوا ﴾ يتعلّق بالنّهى عن الإباء عن حمل الشهادة فى المقام الأوّل ، ووراء ذلك هو يفيد بدلالة الالتزام النّهى عن الإباء عن أداء الشّهادة . أمّا القول المتعلّق بالكاتب والشّهيد بين النّهى عن الإباء حملاً وأداءً : ﴿ ولا يضارَّ كاتبٌ ولا شهيد ﴾ فإنّه ينهى عن إلحاق الضّرر بالكاتب والشّهيد ، وبهذا يكون كلّ أطراف المسألة قد نالوا قدراً كافياً من العناية ، وهذا الشّمول من مظاهر إعجاز القرآن الكريم ومن الأسباب وراء ترجيح بعض الآراء على البعض الآخر .

وبما أنّ كتمان الشّهادة عملٌ متعلّقٌ بالقلب الّذى تخضع له سائر الجوارح ومنها اللّسان فإنّ الآية الكريمة فى القول : ﴿ ومن يكتمها فإنّه آثمٌ قلبه ﴾ تلحق الإثم والفجور بالقلب باعتباره كما قال المصطفى ﷺ المضغة الّتى إن صلحت صلح الجسد كلّه وإن فسدت فسد الجسد كلّه .

وتقرر الآية الكريمة فى جزئيّتها الأخيرة أنّ الله عليمٌ بما نعمل جميعاً : ﴿ والله بما تعملون عليم ﴾ ولا زلنا بصدد صيغة المبالغة « عليم » ولا زلنا بصدد تقرير علم الله تعالى

المحيط على غرار الجزئيّة الكريمة الأخيرة فى الآية السّابقة : ﴿ والله بكلّ شيءٍ عليم ﴾ وإنّما كان النّصّ هنا على علم الله تعالى بما نعمل ، فالحديث أقرب من سابقه إلى الخصوص ، لأنّنا بصدد قضيّةٍ معيّنة هى الشّهادة . وحينما يقترن بهذه القضيّة المعيّنة النّصّ على علم الله تعالى بما نعمل من إعلانٍ للشّهادة أو كتمان ندرك أهميّة الشّهادة ، ويضاف إلى ذلك أنّه بالحديث عن الشّهادة وتقرير علم الله تعالى بما يقوم به الشّاهد من كتمان أو إعلان كذبٍ فى القول أو صدقٍ ، يسدل السّتار على مسائل الدَّين الّذى تعتبر أولى آيتيه أطول آى القرآن الكريم ، كلّ ذلك من أجل حماية الأموال والحقوق . وبالله التّوفيق .

[٢٠]

خواتيم سورة البقرة

الآيات ٢٨٤ ــ ٢٨٦

لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ
يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ
وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ
إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ
وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا
وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ
ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ
رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ
عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا
تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ
أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

ما أكثر الموضوعات الّتى تحدّثت فيها سورة البقرة بحيث إنّها شملت السّماوات والأرض كما شملت النّفس الإنسانية وها هي ذى السّورة الكريمة فى قسمها الأخير أو فى خواتيمها الّتى لم يؤتها نبيٌّ قبل المصطفى ﷺ تقرّر أنّ لله ما فى السّماوات وما فى الأرض وأن الله سبحانه وتعالى يعلم ما نبدى وما نخفى وسيحاسبنا الله تعالى القادر على كلّ شيءٍ يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلبٍ سليم . وإذا كانت السّورة الكريمة فى أوّلها قد تحدّثت ضمناً عن الرّسول الكريم والقرآن العظيم الهدى للمتّقين فإنّ السّورة الكريمة فى نهايتها تتحدّث عن هذا الرّسول والقرآن العظيم فتقرّر أنّ الرسول الكريم آمن بما أُنْزل إليه من ربّه وآمن المؤمنون ، كلٌّ منهم آمن بالله تعالى وملائكته الأطهار وكتبه المطهّرة ورسله المصطفين الأخيار . وأتباعُ المصطفى الأخيار يختلفون عن اليهود والنّصارى فهم لا يفرّقون بين أحدٍ من رسل الله تعالى وهم ، خلافاً لليهود ، يقولون : ﴿ سمعنا وأطعنا ﴾ ويسألون الله تعالى أنّ يغفر ذنوبهم ويستر عيوبهم ويشملهم برحمته يوم الدّين . وامتداداً لرحمة الله تعالى بالمؤمنين يكون فى القول : ﴿ لا يكلّف الله نفساً إلاّ وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ تخصيصٌ للقول السّابق : ﴿ وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ﴾ وتتوّج السّورة الكريمة بالآية الكريمة الأخيرة فى نهايتها بتلقين الله لنا الدّعاء الذّى يجمل بنا أن ندعو الله به فى كلّ زمانٍ ومكان : ﴿ ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا . ربّنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الّذين من قبلنا . ربّنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به . واعف عنّا واغفر لنا وارحمنا . أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ .

الآيــة رقــم (٢٨٤)

قال تعالى : ﴿ لله ما فى السّموات وما فى الأرض . وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسِبْكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء . والله على كلّ شيءٍ قدير ﴾ .

ختمت الآية الكريمة السّابقة بالنّهى عن كتم الشّهادة وبتقرير علم الله تعالى بما يعمل الخلائق . وهذه الآية الكريمة الأولى تقرّر علم الله تعالى بما تبدى كلّ نفسٍ وبما تخفى . ومعروف أنّ العمل ظاهر وقد نصّت عليه الآية الكريمة السّابقة ، وأنّ ما تبدى كلّ نفس يتعلّق بالكلام الظّاهر غالباً ، فثمّة تدرّج من العمل الظّاهر إلى القول الظّاهر من العمل الواضح إلى القول الأقلّ وضوحا بالقياس إلى العمل . أمّا ما تخفيه كلّ نفس فإنّه أقلّ الأمور الثّلاثة وضوحاً . إنّ الله سبحانه وتعالى عليم بمن هو مستخفٍ باللّيل وساربٌ بالنّهار ، بالعمل الظّاهر والخفىّ ، وبالقول الظّاهر والخفى وبوسوسة النّفس . وممّا له علاقة بالإبداء والإخفاء الشّهادة الّتى نصّت عليها الآية الكريمة السّابقة . وإذا كانت الآية الكريمة السّابقة وقفت عند العلم المرتبط به المحاسبة ضمنًا فإنّ هذه الآية الكريمة تنصّ على المحاسبة ولا تكون المحاسبة دون علم . وهكذا يتبيّن التّلاحم بين الآيات الكريمات ومعانيها المبثوثة فى أثنائها .

عن ابن عبّاس رضى الله عنهما . بينما جبريل عليه السّلام قاعدٌ عند النّبىّ ﷺ وسلّم سمع نَقيضاً[1] من فوقه فرفع رأسه فقال : هذا بابٌ من السّماء فُتِح اليوم و لم يُفْتَحْ قطّ إلاّ اليوم ، فنزل منه مَلَكٌ فقال : هذا مَلَكٌ نزل إلى الأرض لم ينزل قطّ إلاّ اليوم فسلّم وقال : أَبْشِر بنورين أوتيتَهُما لم يؤتَهُما نبىٌّ قبلك ، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة . لن تقرأ بحرفٍ منها إلا أعطيته . رواه مسلم[2] واختلفت آراء العلماء هل الآية الكريمة منسوخة أم أنّها غير منسوخة . والرأى بأنّها منسوخة قاله ابن عبّاس وابن مسعود وعائشة وأبو هريرة وعطاء ومحمّد بن سيرين ومحمّد بن كعب وموسى بن عبيدة وجماعةٌ

---

(١) النّقيض : الصّوت .

(٢) رياض الصّالحين ٣٩٥ وتفسير ابن كثير ٣٤٢/١

من الصّحابة والتّابعين ، وأنه بقى هذا التّكليف حولاً حتّى أنزل الله الفرج بقوله : لا يكلّف الله نفساً إلاّ وسعها . وهو قول ابن مسعود وعائشة وعطاء ومحمّد بن سيرين ومحمّد بن كعب وغيرهم . وفى صحيح مسلم عن ابن عبّاس قال : لمّا نزلت : ﴿ وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ﴾ ، قال : دخل قلوبَهُمْ منها شيءٌ لم يدخل قلوبهم من شيء ، فقال النّبىّ ﷺ : قولوا سمعنا وأطعنا وسلّمنا . قال : فألقى الله الإيمان فى قلوبهم فأنزل الله تعالى : ﴿ لا يكلّف الله نفساً إلاّ وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ قال : قد فعلت . ﴿ ربّنا ولا تَحْمِلْ علينا إصراً كما حملته على الّذين من قبلنا ﴾ . قال : قد فعلت . ﴿ ربنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به واعف عنّا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ . قال : قد فعلت . فى رواية : فلمّا فعلوا ذلك نسخها الله ثمّ أنزل تعالى : ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾[1] روى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال : لمّا نزلت على رسول الله ﷺ : ﴿ لله ما فى السّماوات وما فى الأرض وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء والله على كلّ شيءٍ قدير ﴾ اشتدّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله ﷺ وسلّم ثمّ جَثَوْا على الرّكب وقالوا : يا رسول الله ، كلّفنا من الأعمال ما نطيق الصّلاة والصّيام والجهاد والصّدقة ، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها . فقال رسول الله ﷺ : أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم : سمعنا وعصينا ؟ بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربّنا وإليك المصير . فلمّا أقرّ بها القوم وذلّت بها ألسنتهم أنزل الله فى أثرها : ﴿ آمن الرّسول بما أنزل إليه من ربّه والمؤمنون . كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرّق بين أحدٍ من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربّنا وإليك المصير ﴾ فلمّا فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل الله : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت

---

(١) تفسير القرطبى ١٢٢٩

ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ . إلى آخره ورواه مسلم[١] « قال ابن جرير[٢] ... عن ابن شهاب عن سعيد بن مرجانة سمعه يحدّث أنّه بينما هو جالسٌ مع عبد الله بن عمر تلا هذه الآية : ﴿ لله ما فى السّماوات وما فى الأرض وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء .... ﴾ الآية . فقال : والله لئن واخذنا الله بهذا لنهلكنّ . ثمّ بكى ابن عمر حتّى سمع نشيجه[٣] قال ابن مرجانة فقمت حتّى أتيت ابن عبّاس فذكرت له ما قال ابن عمر وما فعل حين تلاها فقال ابن عبّاس : يغفر الله لأبى عبد الرّحمن لعمرى لقد وجد المسلمون منها حين أنزلت مثل ما وجد عبد الله بن عمر فأنزل الله بعدها : ﴿ لا يكلّف الله نفساً إلاّ وسعها ...﴾ ، إلى آخر السّورة . قال ابن عبّاس : فكانت هذه الوسوسة ممّا لا طاقة للمسلمين بها وصار الأمر إلى أن قضى الله عزّ وجلّ أنّ للنّفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت فى القول والفعل[٤] » قال البخارىّ[٥] حدّثنا إسحاق حدّثنا روح حدّثنا شعبة عن خالد الحذّاء عن مروان الأصفر عن رجلٍ من أصحاب النّبىّ ﷺ ، أحسبه ابن عمر : ﴿ إن تُبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه ﴾ قال : نسختها الآية الّتى بعدها . وهكذا روى عن علىّ وابن مسعود وكعب الأحبار والشّعبىّ والنّخعىّ ومحمّد بن كعب القرظىّ وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة أنّها منسوخة بالّتى بعدها . وقد ثبت بما رواه الجماعة فى كتبهم السّتّة من طريق قتادة عن زرارة بن أبى أوفى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إنّ الله تجاوز لى عن أمّتى ما حدّثت به أنفسها ما لم تكلّم أو تعمل . وفى الصّحيحين من حديث سفيان بن عيينة عن أبى الزّناد عن الأعرج عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : قال الله : إذا همّ عبدى بسيّئة فلا تكتبوها عليه ، فإن عملها فاكتبوها سيّئةً ، وإذا همّ بحسنةٍ فلم يعملها فاكتبوها حسنة ، فإن عملها فاكتبوها عشراً »[٦] .

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٣٣٨ وتفسير القرطبىّ ١٢٣٥

(٢) تفسير الطّبرىّ ٣/٩٥

(٣) يقال : نشَج الباكى ينشِج نَشْجًا ونشيجًا إذا غصّ بالبكاء من غير انتحاب .

(٤) تفسير ابن كثير ١/٣٣٨

(٥) انظر صحيح البخارى ٦/٤١

(٦) تفسير ابن كثير ١/٣٣٩

والرّأى الآخر أنّ الآية الكريمة محكمة ليست بمنسوخة[١] قال الطّبرىّ[٢] : « وأولى الأقوال الّتى ذكرناها بتأويل الآية قول من قال إنّها محكمة وليست بمنسوخة ، وذلك أنّ النّسخ لا يكون فى حكمٍ إلاّ ينفيه بآخر له نافٍ من كلّ وجوهه ، وليس فى قوله جلّ وعزّ ﴿ لا يكلّف الله نفسًا إلاّ وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ نفى الحكم الّذى أعلم عباده بقوله :﴿ أو تخفوه يحاسبكم به الله .... ﴾ » قال ابن عطيّة : وهذا هو الصّواب . وذلك أن قوله تعالى : ﴿ وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه ﴾ معناه ممّا هو فى وسعكم وتحت كسبكم وذلك استصحاب المعتقَد والفكر . فلمّا كان اللّفظ ممّا يمكن أن تدخل فيه الخواطر ، أشفق الصّحابة والنّبىّ ﷺ ، فبيّن الله لهم ما أراد بالآية الأخرى وخصّصها ونصّ على حكمه أنّه لا يكلّف نفساً إلاّ وسعها ، والخواطر ليست هى ولا دفعها فى الوسع ، بل هى أمرٌ غالبٌ وليست ممّا يكتسب ، فكان فى هذا البيان فَرَجُهُمْ وكشف كُرَبِهِم ، وباقى الآية محكمةٌ لا نسخ فيها . وممّا يدفع أمر النّسخ أنّ الآية خَبَر والأخبار لا يدخلها النّسخ »[٣] وقال النّحّاس : ومن أحسن ما قيل فى الآية وأشبه بالظّاهر قول ابن عبّاس : إنّها عامّة ثمّ أدخل حديث ابن عمر فى النَّجْوى أخرجه البخارىّ ومسلم وغيرهما واللّفظ لمسلم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : يُدْنَى المؤمن يوم القيامة من ربّه جلّ وعزّ حتّى يضع عليه كنَفه فيقرّره بذنوبه فيقول : هل تعرف ؟ فيقول : أَىْ ربّ أعرف ، قال : فإنّى سترتها عليك فى الدّنيا وإنّى أغفرها لك اليوم فيُعْطى صحيفة حسناته ، وأمّا الكفّار والمنافقون فينادى بهم على رءوس الخلائق : هؤلاء الّذين كذبوا على الله[٤] .

لله ما فى السّماوات وما فى الأرض : جاء بلفظ ما تغليباً لما لا يعقل على من يعقل لأنّ الغالب فيما حوته إنّما هو جمادٌ وحيوانٌ لا يعقل وأجناس ذلك كثيرة . وأمّا العاقل

---

(١) انظر الرّأى مع آراء أخر فى تفسير القرطبىّ ١٢٢٩ و ١٢٣٠ وتفسير الطّبرىّ ٣/٩٨ وما قبلها .

(٢) تفسير الطّبرىّ ٣/٩٩

(٣) تفسير القرطبى ١٢٣٠

(٤) تفسير القرطبىّ ١٢٣١ وانظر تفسير الطّبرىّ ٣/٩٩ وتفسير ابن كثير ١/٣٤٠

فأجناسه قليلة إذ هى ثلاثة إنسٌ وجنٌّ وملائكة[١] .

وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه : يعنى من السّوء[٢] .

فيغفر لمن يشاء : قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وحمزة والكسائىّ فَيَغْفِرْ ويُعَذِّبْ بالجزم عطف على الجواب . وقرأ ابن عامر وعاصم بالرّفع فيهما على القطع ، أى فهو يغفر ويعذّب . وروى عن ابن عبّاس والأعرج وأبى العالية وعاصم الجحدرىّ بالنّصب فيهما على إضمار أن . وحقيقته أنّه عطفٌ على المعنى ، كما فى قوله تعالى : ﴿ فيضاعِفَه له ﴾[٣] .

ويعذّب من يشاء : ممّن استوجب العقوبة بالإصرار ولا يدخل فيما يخفيه الإنسان الوساوس وحديث النّفس لأنّ ذلك ممّا ليس فى وسعه الخلوّ منه[٤] .

بهذه الآية الكريمة يبدأ القسم الأخير من سورة البقرة الكريمة الّذى يتكوّن من ثلاث آياتٍ كريمات . وبعد هذه الجولة الواسعة فى عالم قضايا سورة البقرة الواسع وبحر معانيها العميق وآفاق مراميها غير ذوات الحدود نصادف فى مطلع هذه الآية الكريمة من خواتيم سورة البقرة القول : ﴿ لله ما فى السّماوات وما فى الأرض ﴾ إنّ كلّ ما تحدّثت عنه سورة البقرة من قضايا ومسائل وشخصيات وسماءٍ وأرض وكون، وإنّ كلّ هذا الوجود الّذى نعرف عنه القليل ونجهل الكثير هو لله سبحانه وتعالى لا إلـه إلاّ هو ولا معبود بحقّ سواه جلّ وعلا . إنّ لله ما فى السّموات وما فى الأرض ملكاً وخلقاً وعبيدا . وتستعمل الآية الكريمة : « ما » دليلاً على غير العاقل وليس « من » دليلاً على العاقل تغليباً للأكثر من جماد وحيوان على الأقلّ من إنسٍ وجنٍّ وملائكة . وحينما يكون الكون كلّه ملكاً لله تعالى يكون ضمناً خاضعاً لمشيئة الله تعالى طوعاً أو كرهاً .

ولمّا كانت آية الدّين الثّانية السّابقة قد عنيت فى آخرها بالشّهادة وهى من أعمال القلوب ، كان فى هذه الآية الكريمة الأولى فى القسم ، بعد أن قرّرت أنّ لله ما فى السّماوات وما فى الأرض ، تحوّلٌ إلى الحديث عن النّفوس ، والنّفوس قريبةٌ من القلوب بل تكاد تكون من جنسها . ولمّا كان من القلوب كتمانٌ للشّهادة أو تبيين إخفاء

---

(١) البحر المحيط ٢/٣٥٩
(٢) الكشّاف ١/٣٠٧
(٣) تفسير القرطبىّ ١٢٣١
(٤) الكشّاف ١/٣٠٧

أو إعلان ، وذلك تبعٌ لفساد القلب أو صلاحه ، والقلب محاسبٌ صاحبه فمثابٌ أو معاقب ، فقد كان الحديث عن النّفوس من زاوية الإبداء والإخفاء ، وعلم الله تعالى بالإبداء والإخفاء ، ومحاسبة كلٍّ من المبدى والمخفى ، إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ .

وبما أنّ السّماوات أكبر من الأرض والأرض أكبر من الإنسان وغير الإنسان من مخلوقات ، فكأنّ الآية الكريمة فى ترتيبها للسّماوت والأرض والمخلوقات قد نبّهت إلى هذه الحقيقة وراعت هذا التّدرّج المتحوّل من الأكبر إلى الكبير فالصّغير . وقد جاء فى سورة غافر[١] قوله تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السّماوات والأرض أكبر من خلق النّاس ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون ﴾ وممّا يعمّق من ضخامة السّماوات بالقياس إلى الأرض صيغة الجمع الّتى جاءت فيها السّماوات وصيغة المفرد الّتى فيها الأرض .

أما وقد تساوى فى علم الله تعالى الإبداء والإخفاء الإعلان والإسرار ، فسيّان فى حقّه جلّ وعلا أن يبدى العبد فى نفسه أو يخفى ، وأن يسرّ فى نفسه أو يعلن ، وقد قال تعالى[٢] : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسُهُ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ وقال تعالى[٣] : ﴿ سواءٌ منكم من أسرّ القول ومن جهر به ومن هو مستخفٍ باللّيل وساربٌ بالنّهار ﴾ فهل فى الإمكان ، فى ضوء التّدرّج فى الآية الكريمة من الأشدّ ظهوراً وضخامةً أعنى السّماء ، إلى الأقلّ ظهوراً وضخامةً أعنى الأرض فالإنسان ، أن نتبيّن فى تقديم الإبداء على الإخفاء ، من زاويتنا نحن البشر المحدودى الإدراك ، هذه المراعاة ، فتقدّم فى الذّكر الظّاهر المعلن على الباطن الخفىّ؟ رُبَما . قال تعالى : ﴿ وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ﴾ .

إنّ فى الآية الكريمة السّابقة نهياً مباشراً عن سوء : ﴿ ولا تكتموا الشّهادة ﴾ وإن فى هذه الآية الكريمة نهياً غير مباشر عن سوء ، أعنى مايبديه الإنسان أو يخفيه فى نفسه من سوءٍ غالباً . إنّ الله سبحانه وتعالى الّذى لا يُسْأل عمّا يفعل يغفر السّوء لمن يشاء أن يغفِر له فضلاً ، ويعذّب من يشاء أن يعذّبه عَدْلاً . قال تعالى : ﴿ وإن تبدوا ما فى أنفسكم

---

(١) الآية ٥٧

(٢) سورة ق ١٦ (٣) سورة الرعد ١٠

أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ﴾ والّذى يلفت النّظر هنا حقّاً هو تقديم المغفرة : أى الفضل ، على العذاب ، أى العدل . وإنّ تقديم المغفرة ونحن على وشك الوصول إلى نهاية السّورة الكريمة يُفْهَمُ منه أن من يغفر الله تعالى له بفضله أهلٌ لذلك رغم ارتكابه لمم الذّنوب ، وربما ارتكب كبائر الإثم والفواحش ولكنّه تاب إلى الله تعالى الّذى يقبل التّوبة عن عباده توبةً نصوحاً . وكأنّ هذا الّذى يغفر الله سبحانه وتعالى ذنبه قد استفاد من دروس سورة البقرة مثلاً ودروس سائر القرآن الكريم ودروس سنّة المصطفى ﷺ ، وترجم ما شاء الله تعالى أن يترجم من دروس إلى عملٍ صالحٍ خالصٍ لوجهه الكريم جلّ وعلا ، وبذلك مثّل هذا الّذى غفر الله تعالى ذنبه وستر عيبه الثّمرة اليانعة النّاضجة لمنهج القرآن الكريم التّربوىّ ، الّذى آتى أكله بفضلٍ من الله تعالى ونعمة ، والّذى تمثّل فى السّابقين المقرّبين وفى أصحاب اليمين ، فى السّابقين بالخيرات والمقتصدين . إنّ السّابقين بالخيرات بإذن الله تعالى والمقتصدين أهلٌ لدخول الجنّة بفضل الله تعالى ، بل إنّ فضل الله تعالى ليشمل الظّالمين أنفسَهُمْ بعد أن يتوبوا إلى الله تعالى ويتفضّل جلّ وعلا عليهم بقبول توبتهم . وإلى هذه المعانى السّامية وإلى فضل الله تعالى على هذه الفئات الثّلاث بدخول الجنّة ، أشار قوله تعالى فى سورة فاطر[١] : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الّذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالمٌ لنفسه ومنهم مقتصدٌ ومنهم سابقٌ بالخيرات بإذن الله . ذلك هو الفضل الكبير . جنّاتُ عدنٍ يدخلونها يُحَلَّوْن فيها من أساور من ذهب ولؤلؤًا . ولباسُهُمْ فيها حرير . وقالوا الحمد لله الّذى أذْهَبَ عنّا الحَزَن . إنّ ربّنا لغفورٌ شكور . الّذى أحلّنا دار المُقامة من فضله لا يمسُّنا فيها نَصَبٌ ولا يمسُّنا فيها لغوب ﴾ .

وإنّ تقديم المغفرة فى الذّكر على الأخذ بالعذاب الّذى يعنى أنّ رحمة الله سبحانه وتعالى سبقت غضبه ومغفرته سبقت عذابه ، قذفت إلى أذهاننا ببعض المواقف المشابهة فى القرآن الكريم ومن ذلك ما جاء فى حقّ كفّار مكّة الّذين فعلوا — بإذن الله تعالى — بالمسلمين فى أحد ما فعلوا وكسروا رَباعيته ﷺ وشجّوا وجهه الكريم وقال عليه الصّلاة والسّلام : كيف يُفْلِح قومٌ خضبوا وجه نبيّهم بالدّم[٢] جاء فى سورة آل عمران[٣]

---

(١) الآيات ٣٢ — ٣٥ (٢) الجلالين (٣) ١٢٨ ، ١٢٩

قوله تعالى : ﴿ ليس لك من الأمر شيءٌ أو يتوب عليهم أو يُعذّبَهُمْ فإنّهم ظالمون . ولله ما فى السّماوات وما فى الأرض يغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء . والله غفورٌ رحيم ﴾ فإرادة الله تعالى شاءت أن تقدّم المغفرة على العذاب فى حقّ أولئك الكافرين . وفى أثناء حديث سورة الفتح عن المخلّفين عن الجهاد فى سبيل الله تعالى من الأعراب حول المدينة والمعتذرين كذباً بمختلف الأعذار يجىء قوله تعالى[١] : ﴿ ولله ملك السّماوات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء . وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ .

وقد تقدّم ذكر العذاب على المغفرة فى حقّ السّارق والسّارق بعد الأمر بقطع أيديهما فثمّة تجانسٌ بين تنفيذ حكم الله تعالى وبين ذكر العذاب ابتداء . قال تعالى[٢] : ﴿ ألم تعلم أنّ الله له مُلْك السُماوات والأرض يعذّب من يشاء ويغفر لمن يشاء . والله على كل شى قدير ﴾ .

كما تقدّم ذكر العذاب على التّوبة فى حقّ الثّلاثة الّذين خُلّفوا وأخّروا عن التّوبة عليهم والّذين تخلّفوا عن المشاركة فى غزوة تبوك . جاء فى سورة التوبة[٣] قوله تعالى . ﴿ وآخرون مُرْجَوْن لأمر الله إمّا يعذّبهم وإمّا يتوب عليهم . والله عليمٌ حكيم ﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد وعكرمة والضّحّاك وغير واحد : الثّلاثة الّذين خلّفوا أى عن التّوبة وهم مرارة بن الرّبيع وكعب بن مالك وهلال بن أميّة ، قعدوا عن غزوة تبوك فى جملة من قعد كسلاً وميلاً إلى الدّعة والحفظ وطيب الثّمار والظّلال لا شكّاً ونفاقاً فكانت منهم طائفة ربطوا أنفسهم بالسّوارى كما فعل أبو لبابة[٤] وأصحابه ، وطائفةٌ لم يفعلوا ذلك وهم هؤلاء الثّلاثة المذكورون . فنزلت توبة أولئك قبل هؤلاء وأرجى هؤلاء عن التّوبة حتّى نزلت الآية الآتية وهى قوله : ﴿ لقد تاب الله على النّبىّ والمهاجرين والأنصار ﴾ . الآية . ﴿ وعلى الثّلاثة الّذين خلّفوا حتّى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ﴾ .

---

(١) سورة الفتح ١٤ (٢) سورة المائدة ٤٠

(٣) الآية ١٠٦

(٤) أبو لبابة ، بشر بن عبد المنذر الأنصارىّ من النّقباء ، تاج العروس .

الآية[١] ويصحّ أن نفهم تقديم العذاب فى حقّ هؤلاء المؤمنين المتّقين بأنّه تنبيهٌ إلى أنّ الزّلّة من المؤمن المتّقى لا يتوقّع ولا يتصور وقوعها منها ، فكيف إذا كانت الزّلّة تخلّفاً عن الجهاد مع المصطفى ﷺ فى غزوة من أشقّ الغزوات وفى وقتٍ من أصعب الأوقات .

وبما أنّ حديث آية سورة البقرة عن المغفرة والعذاب حديثٌ مطلقٌ وعام فقد ناسب أن يكون التّذييل : ﴿ والله على كل شيءٍ قدير ﴾ إنّ الله سبحانه وتعالى على كل شيءٍ قدير ومن ذلك أن يغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء ، لا يُسْأل سبحانه عمّا يفعل وهم يُسْألون .

فى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : جاء ناس من أصحاب رسول الله ﷺ فسألوه فقالوا : إنّا نجد فى أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلّم به . قال : وقد وجدتموه ؟ قالوا : نعم . قال : ذاك صريح الإيمان[٢] .

الآيــة رقــم (٢٨٥)

قال تعالى : ﴿ آمن الرّسولُ بما أُنْزِل إليه من ربّه والمؤمنون . كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرّق بين أحدٍ من رُسُله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانَكَ ربَّنا وإليك المصير ﴾ .

آمن الرّسول : صدّق الرّسول يعنى رسول الله ﷺ[٣] قال الزّجّاج : لمّا ذكر الله تعالى فى هذه السّورة فرض الصّلاة والزّكاة وبيّن أحكام الحجّ وحكم الحجّ وحكم الحيض والطّلاق والإيلاء وأقاصيص الأنبياء وبيّن حكم الرّبا ، ذكر تعظيمه سبحانه وتعالى : ﴿ لله ما فى السّماوات وما فى الأرض ﴾ . ثمّ ذكر تصديق نبيّه ﷺ ثمّ ذكر تصديق المؤمنين بجميع ذلك فقال : ﴿ آمن الرّسول بما أنزل إليه من ربّه ﴾ أى صدّق الرّسول بجميع هذه الأشياء الّتى جرى ذكرها وكذلك المؤمنون صدّقوا بالله وملائكته وكتبه

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٣٨٧ (٢) تفسير ابن كثير ١/٣٣٩

(٣) تفسير الطّبرىّ ٣/١٠٠ وتفسير القرطبى ١٢٣٦ والجلالين .

وكتبه ورسله[١] .

بما أنزل إليه من ربه : هو القرآن[٢] .

كلٌّ : تنوينه عوض من المضاف إليه[٣] ووحّد ضمير كلّ فى آمن على معنى كلّ واحدٍ منهم آمن . وكان يجوز أن يجمع كقوله : وكلٌّ أتوه داخرين[٤] .

لا نفرّق : قرأ جمهور النّاس : لا نفرّق بالنّون ، والمعنى يقولون لا نفرّق فحذف القول . وحذف القول كثير . قال الله تعالى : ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كلّ باب . سلامٌ عليكم ﴾ . أى يقولون سلامٌ عليكم . وقال : ﴿ ويتفكرون فى خلق السّماوات والأرض ربّنا ما خلقت هذا باطلاً ﴾ . أى يقولون ربّنا[٥] .

بين أحدٍ من رسله : قال بين أحدٍ على الإفراد و لم يقل آحاد ، لأنّ الأحد يتناول الواحد والجميع ، كما قال تعالى : ﴿ فما منكم من أحدٍ عنه حاجزين ﴾ . فحاجزين صفة لأحد لأنّ معناه الجمع . وقال ﷺ : ما أحلت الغنائم لأحدٍ سود الرّءوس غيركم[٦] ولذلك دخل على « أحد » بين[٧] وأحد هنا هى المختصّة بالنّفى وما أشبهه فهى للعموم فلذلك دخلت من عليها كقوله تعالى : ﴿ فما منكم من أحدٍ عنه حاجزين ﴾ ، والمعنى بين آحادهم[٨] والمعنى أنّ المؤمنين ليسوا كاليهود والنّصارى فى أنّهم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض[٩] .

وقالوا سمعنا وأطعنا : أى سمعنا قولك وأطعنا أمرك ولا يراد مجرّد السّماع بل القبول والإجابة . وقدّم سمعنا على وأطعنا لأنّ التّكليف طريقه السّمع والطّاعة بعده وينبغى للمؤمن أن يكون قائلاً هذا دهره[١٠] أى سمعنا ما أمرنا به سماع قبول[١١] وسمعنا سماع قابلين . وقيل : سمع بمعنى قَبِل كما يقال : سمع الله لمن حمده فلا يكون فيه حذف[١٢] .

---

(١) تفسير القرطبىّ ١٢٣٤
(٢) تفسير القرطبىّ ١٢٣٦
(٣) الجلالين
(٤) الكشّاف ١/٣٠٧
(٥) تفسير القرطبى ١٢٣٦ وتفسير الطّبرىّ ٣/١٠١
(٦) تفسير القرطبىّ ١٢٣٧
(٧) الكشّاف ١/٣٠٨
(٨) البحر المحيط ٢/٣٦٥
(٩) تفسير القرطبى ١٢٣٧
(١٠) البحر المحيط ٢/٣٦٦
(١١) الجلالين
(١٢) تفسير القرطبىّ ١٢٣٧

غفرانك : مصدر كالكفران والخسران والعامل فيه فعلٌ مقدّر تقديره : اغفر غفرانك قاله الزّجّاج . وغيره . نطلب أو أسأل غفرانك[١] أو نسألك[٢] والغفران والمغفرة السّتر من الله على ذنوب من غفر له ، وصَفْحُهُ له عن هتك ستره بها فى الدّنيا والآخرة ، وعفوه عن العقوبة عليه[٣] .

وإليك المصير : المصير اسم مصدر من صار يصير وهو مبنىّ على مفعل بكسر العين[٤] .

تحدّثت الآية الكريمة السّابقة عن عظمة الله تعالى فله جلّ وعلا ما فى السّماوات وما فى الأرض ولا يخفى عليه شيءٌ فى الأرض ولا فى السّماء ويغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء ، وبعد الحديث عن الذّات العليّة فى هذه الآية الكريمة يكون الحديث فى الآية الكريمة التّالية عن الرّسول ﷺ وأمّته . وسبق أن تبيّنّا العلاقة بين الآيتين الكريمتين وكون الأولى سبباً فى نزول الآية الثّانية ، والآية الثّانية بدورها سبباً فى نزول الآية الثّالثة والأخيرة من السّورة الكريمة . إنّ الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم حينما نزلت أولى الآيات الكريمات الثّلاث وفيها النّصّ على محاسبة الله تعالى عباده على ما أبدوه وما أخفوه فى أنفسهم ، أشفقوا أن يكونوا مؤاخذين على خواطر قلوبهم ووساوس نفوسهم ، فأمرهم المصطفى ﷺ بأن يمتثلوا أوامر الله تعالى وأن يقولوا سمعنا وأطعنا ، والمعنى سمعنا قولك يا ربّنا وأطعنا أمرك . فأنزل الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة الّتى نحن بصددها وفيها الثّناء على الذّين قالوا : ﴿ سمعنا وأطعنا ﴾ .

والآية الكريمة تقرّر أنّ المصطفى ﷺ ، رسول الله تعالى ، قد آمن بما أُنزل إليه من ربّه من قرآن مجيد وصدّق بما أوحى الله تعالى إليه بواسطة الملك جبريل عليه السّلام من كتابٍ عزيزٍ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيمٍ حميد ، كما آمن بذلك المؤمنون من أمّته عليه الصّلاة والسّلام .

---

(١) تفسير القرطبىّ ١٢٣٧ والبحر المحيط ٣٦٦/٢

(٢) الجلالين

(٣) تفسير الطّبرىّ ١٠٢/٣

(٤) البحر المحيط ٣٦٦/٢

وإنّ فى استعمال الآية الكريمة لفظٌ « رسول » بالذّات وليس لفظ نبىّ مثلاً تنبيها إلى عظيم فضل الله تعالى على هذا الرّسول الكريم إذ المعروف أنّ أكبر نعمةٍ يتفضّل الله تعالى بها . على واحدٍ من عباده هى نعمة الرّسالة ، وفى النّصّ على الرّسالة نصٌّ ضمنىٌّ على النّبوّة لأنّ النّبوّة ذاتها هى الطّريق الوحيد المؤدى إلى الرّسالة ، فكل رسول نبىّ وليس كلّ نبىٍّ رسولا . وإنّ فى القول : ﴿ بما أُنْزِل إليه من ربّه ﴾ تعييناً لمصدر القرآن الكريم ، السّماء . ومن هذه السّماء ، بأمرٍ من الله تعالى ، يحمل رسولٌ من الملائكة كريم ، ما شاء الله تعالى من وحى ، إلى رسولٍ من البشر كريم . إنّ الرّسول الملك الكريم جبريل عليه السّلام . وإنّ الرّسول البشر الكريم محمّد بن عبد الله ﷺ .

وانظر إلى لفظة ربّ فى القول : ﴿ بما أنزل إليه من ربّه ﴾ إنّ لفظ الرّبّ إنّما يستعمل فى القرآن الكريم فى مواقف الخصوص ، ومواطن الرّضا والحبور ، وبقصد لفت الانتباه إلى تربية الله تعالى عباده بنعمه وآلائه ، ووجوب قيامهم بالشّكر لله تعالى عليها . إنّ هذه المعانى كلّها يفيدها لفظ الرّب الّذى اقترن به ضمير المفرد الغائب العائد إلى المصطفى ﷺ . وحينما يعطف المؤمنون على الرّسول الكريم : ﴿ آمن الرّسول بما أُنزِل إليه من ربّه والمؤمنون ﴾ فذلك معناه أنّ المؤمنين آمنوا بما أنزل الله تعالى على الرّسول الكريم من قرآنٍ كريم وقاموا بما يجب عليهم من شكرٍ لله تعالى على نعمه الّتى لا تُحْصَى وفى مقدّمتها نعمة الإسلام ، وإرسال خاتم النّبيّين وأشرفهم ، وإنزال آخر الكتب وأعظمها . ومن مظاهر قيامهم بالشّكر لله تعالى على نعمه وآلائه إيمانهم بالقرآن الكريم الّذى يعنى ضمنًا تصديقهم للرّسول الكريم رسول ربّ العالمين ، ربّهم وربّ آبائهم الأوّلين .

وهذه المعانى السّامية النّبيلة تتمشى مِنْ ناحيةٍ مع ما يُنْتَظَر مِن خير أمّةٍ أخرجت للنّاس ، وتتمشّى من ناحيةٍ أخرى مع نهاية السّورة الكريمة ، إذ يوحى ذلك بأن المؤمنين المتّقين الّذين نصّت عليهم السّورة الكريمة فى مطلعها والّذين من سماتهم أنّ القرآن الكريم هدًى لهم ، قد اهتدوا فزادهم الله تعالى هدًى ، وهذه هى ثمار السّورة النّاضجة الشّهيّة الّتى أفاد منها المؤمنون تتجلّى فى هذا النّوع الكامل من الإيمان ابتداءً بالإيمان بالله تعالى وبملائكته وكتبه ورسله جلّ وعلا وبكلّ ما جاءهم عن الله تعالى بواسطة هذا الرّسول

الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

ونستطيع أن نتبيّن شيئاً من وجه الشّبه فى ترتيب عناصر الإيمان فى هذه الآية الكريمة : ﴿ كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ﴾ وفى آية الإيمان أو آية البرّ من سورة البقرة الكريمة[١] : ﴿ ليس البِرَّ أن تولّوا وجوهكم قِبلَ المَشْرِق والمغرب ولكنّ البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنّبيّين ﴾ الآية . وإنّما اختلفت العناصر واختلف ترتيبها بعض الاختلاف لحكمةٍ فى كلٍّ من المناسبتين . إنّ الحديث عن مقوّمات البرّ وعناصره حديثٌ عامٌّ وشامل لهذا ابتدأ بالإيمان بالله تعالى وثنّى بالإيمان باليوم الآخر ثمّ ملأ ما بينهما . أمّا الحديث عن الإيمان فى هذه الآية الكريمة قبل الأخيرة من سورة البقرة فينطلق من إيمان الرّسول ﷺ بالقرآن الكريم الّذى أنزله الله تعالى إليه فى أسمى طرق الوحى ، لهذا كان الحديث عن الإيمان من هذا المنطلق . قال تعالى : ﴿ كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرّق بين أحدٍ من رسله ﴾ ونستطيع أن نفهم أنّ منطلق الإيمان وخطوته الأولى الإيمان بالله تعالى ربّ العالمين . ولهذا كان النّصّ ابتداءً على هذه الحقيقة . ﴿ كلٌّ آمن بالله ﴾ والمعنى كلّ واحدٍ منهم آمن بالله ، وما دمنا بصدد إيمانٍ بما أنزل الله تعالى على رسوله وهو القرآن الكريم الّذى نزل به ملكٌ كريم هو جبريل عليه السّلام فمعنى هذا أنّ الحديث عن الملائكة هنا هو الطّبيعىّ باعتبار جبريل عليه السّلام هو حامل هذا الكتاب العزيز إلى المصطفى ﷺ وباعتبار جنس الملائكة هى الّتى تدبّر بإرادة الله تعالى الأمر من السّماء إلى الأرض وقد قال تعالى[٢] : ﴿ ينزّل الملائكة بالرّوح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنّه لا إلٰه إلاّ أنا فاتّقون ﴾ والمقصود بالملائكة جبريل عليه السّلام . وقال عزّ من قائل عن الملائكة فى سورة النّازعات[٣] : ﴿ فالمدبّرات أمراً ﴾ قال تعالى : ﴿ كلٌّ آمن بالله وملائكته ﴾ .

وفى ضوء الانطلاق من زاوية ما أنزل الله تعالى على رسوله ما هو أهمّ ما ينزل به الملائكة ؟ كتب الله تعالى الّتى ختمت بأشرفها ، القرآن الكريم ، ولهذا كان الحديث بعد

---

(١) الآية ١٧٧ (٢) سورة النّحل ٢

(٣) الآية ٥

ذلك عن هذه الكتب المطهّرة : ﴿ كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ﴾ .

وعلى مَنْ تنزل هذه الكتب السّماوية ؟ على رسلٍ لله تعالى مصطفين أخيار ، ولهذا كان النّصّ فى الآية الكريمة على هؤلاء الرّسل الكرام البررة : ﴿ كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ﴾ وبهذا نكون بصدد أربعة أركان من أركان الإيمان السّتّة ، وهى أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشرّه من الله تعالى . ومع أنّ منطلق الحديث عن الإيمان فى الآية الكريمة وهو إنزال القرآن الكريم يكتفى بهذه الحلقات الأربع من السّلسلة فإنّ تمام أركان الإيمان داخلةٌ فى بقيّة الأركان ضمناً ، فلا يكون إيمانٌ بالله تعالى وبملائكته وكتبه ورسله إلاّ من مقوّماته الإيمان باليوم الآخر وبالقدر خيره وشرّه من الله تعالى . وإنّ حكمة المراعاة لمنطلق الحديث وهى الإيمان بالله تعالى ، اقتضت الاقتصار على الأركان الأربعة المذكورة .

ومع أنّ الملك جبريل عليه السّلام هو أمين الله تعالى على وحيه فإنّ الحديث يشملّ كلّ الملائكة لذا جاءت صيغة الجمع ، ومع أنّ المقصود من جنس الكتب السّماوية القرآن الكريم فإنّ الحديث يشمل كلّ الكتب لذا جاءت صيغة الجمع . وبما أنّ هذه الكتب نزلت على مجموعةٍ من رسل الله تعالى فقد كان الحديث عن جميع الرّسل من أكرمه الله تعالى بكتابٍ سماوىّ ومن أكرمه بغير الكتاب . ومن المعروف أنّ من مقومات إيمان المسلم الإيمان بكلّ الكتب السّماويّة ولكنّ القرآن الكريم المهيمن عليها ناسخٌ لها ، وأنّ من مقوّمات إيمان المسلم الإيمان بكلّ الرّسل ولكنّ دين الإسلام الّذى بعث الله تعالى به محمّد ابن عبد الله ﷺ ناسخٌ لها ، ومن المعروف أنّ اليهود يؤمنون بموسى ويكفرون بعيسى ومحمّد عليهم الصّلاة والسّلام ، وأنّ النّصارى يؤمنون بموسى وعيسى عليهما الصّلاة والسّلام ويكفرون بمحمّد عليه الصّلاة والسّلام ، وأنّ المسلمين يؤمنون بموسى وعيسى ومحمّد وكلّ أنبياء الله ورسله عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه . وهذا معناه أنّ أهل الكتابين السّابقين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض فقد أخذ الله تعالى العهد على سائر النّبيّين أن يؤمنوا بمحمّد ﷺ إذا جاءهم والمراد بذلك أممهم . قال تعالى[1] : ﴿ وإذ

---

(١) سورة آل عمران ٨١ ، ٨٢

أخذ الله ميثاق النّبيّين لما آتيتكم من كتابٍ وحكمةٍ ثمّ جاءكم رسولٌ مصدِّقٌ لما معكم لتؤمننّ به ولتنصُرُنّه . قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا . قال فاشهدوا وأنا معكم من الشّاهدين . فمن تولىّ بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ .

وتنبيهاً على ما يمتاز به المسلمون من إيمانٍ بكلّ الرّسل ممّا يعتبر من صميم إيمانهم يجئ قوله تعالى﴿ لا نفرّق بين أحدٍ من رسله ﴾ والمعنى : يقولون لا نفرّق بين أحدٍ من رسله جلّ وعلا . إن التّفريق بين الرّسل مبدأٌ مرفوضٌ أساساً فكلٌّ قد أكرمه الله تعالى بنعمتى النّبوّة والرّسالة . إنّ هذه عقيدةٌ يدين بها كلّ مسلمٍ لله ربّ العالمين . إنّ الإيمان كاملٌ بكلّ الرّسل فلا تفريق بين الرّسل ولا إيمان ببعض الكتاب دون البعض الآخر ، فالإيمان كاملٌ بكلّ الكتب السّماويّة ، والإيمان كامل كذلك بأنّ الله سبحانه وتعالى قد تكفّل بحفظ القرآن الكريم وحده ، أمّا الكتب السّماوية السّابقة فقد أوكل الله تعالى مهمّة حفظها إلى العباد الّذين خانوا فى مجموعهم الأمانة وحرّفوا الكلم عن مواضعه .

وإذا كان فى القول : ﴿ لا نفرّق بين أحدٍ من رسله ﴾ تعريضٌ بأهل الكتابين الّذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ، والّذين يؤمنون ببعض الرّسل ويكفرون ببعض ، فإنّه يعنى ضمناً السّمع والطّاعة فى حق المؤمنين وبذلك يعتبر مرشّحاً للقول :

﴿ وقالوا سمعنا وأطعنا ﴾ والمعنى وقالوا سمعنا يا ربّنا قولك وأطعنا أمرك .

وإنّ سمع المؤمنين لما قال الله تعالى وقال رسوله الكريم سماع قبول ، وإنّ طاعتهم لله تعالى ولرسوله الكريم ﷺ يقترن بهما اليقظة والحذر وعدم الغفلة والعلم الأكيد بأنّ عملهم الصّالحات الّتى يريدون بها وجه الله تعالى إنّما تؤتى أكلها حينما يتفضّل الله تعالى بقبولها وقد قال عزّ من قائل فى صفات المؤمنين فى سورة المؤمنون[1] : ﴿ والّذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وَجِلةٌ أنّهم إلى ربّهم راجعون ﴾ فهؤلاء المؤمنون يخافون ألاّ يتقبّل الله سبحانه وتعالى صلاتهم وزكاتهم وصيامهم وحجّهم وأعمالهم الصّالحة . وإنّ هذه الصّفات الحسنة تتحقّق فى هؤلاء المؤمنين حينما تلهج ألسنتهم بما ختمت به الآية

---

(١) الآية ٦٠

الكريمة : ﴿ غفرانك ربّنا وإليك المصير ﴾ إنّهم يسألون الله سبحانه وتعالى أن يغفر ذنوبهم ويستر عيوبهم وأن يتغمّدهم برحمته حينما يصيرون إليه يوم القيامة فى ذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود الّذى لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون ، إلاّ من أتى الله بقلبٍ سليم . إنّ هؤلاء المؤمنين مستقرٌّ فى يقينهم اتّصال هذه الحياة الأولى بالآخرة ، فليست هذه الحياة سوى طريقٍ موصلٍ إلى الآخرة ، وليست هذه الحياة سوى حياة العمل وبذر البذور أمّا الحياة الأخرى فإنّها حياة الجزاء والحصاد وجنى الثّمار . ولا تكون الثّمار إلاّ من جنس البذور . وإنّ هؤلاء المؤمنين المتّقين يطمعون من بارئهم جلّ وعلا أن يغفر ذنوبهم ويستر عيوبهم ويتجاوز عن سيئاتهم وأن يتفضّل بقبول أعمالهم الصّالحة الّتى يريدون بها وجهه الكريم جلّ وعلا .

وقد ذكر أنّ هذه الآية لمّا نزلت على رسول الله ﷺ ثناءً من الله عليه وعلى أمّته قال له جبريل ﷺ : إنّ الله عزّ وجلّ قد أحسن عليك وعلى أمّتك الثّناء فسل ربّك[١] تُعطْه فسأل : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها ﴾ . إلى آخر السّورة[٢] .

وفى الصّحيحين ومسند الإمام أحمد عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلةٍ كفتاه[٣] وروى الإمام أحمد عن أبى ذرّ قال : قال رسول الله ﷺ : أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنزٍ تحت العرش لم يعطهنّ نبىٌّ قبلى[٤] وعن علىّ قال : لا أرى أحداً عقل الإسلام ينام حتّى يقرأ آية الكرسىّ وخواتيم سورة البقرة فإنّها من كنز عطيّة نبيّكم ﷺ من تحت العرش[٥] وعن ابن عبّاس قال : كان رسول الله ﷺ إذا قرأ آخر سورة البقرة وآية الكرسى ضحك وقال : إنّهما من كنز الرّحمن تحت العرش[٦] .

وفى العلاقة بين حديث هذه الآية فى آخر السورة عن الكتاب العزيز وحديث السّورة

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٣/١٠٢ (٢) تفسير الطّبرىّ ٣/١٠٢
(٣) تفسير ابن كثير ١/٣٤٠ (٤) تفسير ابن كثير ١/٣٤١
(٥) تفسير ابن كثير ١/٣٤١ وانظر تفسير القرطبىّ ١٢٤١
(٦) تفسير ابن كثير ١/٣٤١

الكريمة فى أوّلها عن الكتاب العزيز كذلك إليك هذا الكلام العظيم لأبى حيّان[١] : « ولمّا كان مفتتح هذه السّورة بذكر الكتاب المنزل وأنّه هدًى للمتّقين الموصوفين بما وصفوا به من الإيمان بالغيب وبما أنزل إلى الرّسول وإلى من قبله كان مختتمها أيضاً موافقاً لمفتتحها . وقد تتبّعت أوائل السّور المطوّلة فوجدتها يناسبها أواخرها بحيث لا يكاد ينخرم منها شيء ..... وذلك من أبدع الفصاحة حيث يتلاقى آخر الكلام المفرط فى الطّول بأوّله وهى عادةٌ للعرب فى كثيرٍ من نظمهم يكون أحدهم آخذاً فى شيءٍ ثمّ يستطرد منه إلى شيءٍ آخر ثمّ إلى آخر هكذا طويلا ثم يعود إلى ما كان آخذاً فيه أوّلاً . ومن أمعن النّظر فى ذلك سهل عليه مناسبة ما يظهر ببادئ النّظر أنّه لا مناسبة له . فبيّن تعالى فى آخر هذه السّورة أنّ أولئك المؤمنين هم أمّة محمّد ﷺ » .

الآيــة رقــم (٢٨٦)

قال تعالى : ﴿ لا يكلّف الله نفساً إلاّ وسْعَها ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت . ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا . ربّنا ولا تَحْمِل علينا إصراً كما حملته على الّذين من قبلنا . ربّنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا ، واغفر لنا ، وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾ .

لا يكلّف الله نفساً : التّكليف هو الأمر بما يشق عليه . وتكلّفت الأمر تجشّمته حكاه الجوهرىّ[٢] ويكلّف يتعدّى إلى مفعولين أحدهما محذوف تقديره عبادةً أو شيئاً[٣] .

إلاّ وسعها : إلاّ بما يسعها فلا يضيق عليها . والوسع اسمٌ من قول القائل : وسعنى هذا الأمر مثل الجُهد والوُجد من جهدنى هذا الأمر ووجدت منه[٤] والوسع الطّاقة والجِدة[٥] وما يسعه الإنسان ولا يضيق عليه ولا يحرج فيه[٦] والوسع دون المجهود

---

(١) البحر المحيط ٣٦٣/٢
(٢) تفسير القرطبىّ ١٢٣٧
(٣) تفسير القرطبىّ ١٢٣٨
(٤) تفسير الطّبرىّ ١٠٢/٣
(٥) تفسير القرطبى ١٢٣٧
(٦) الكشّاف ٣٠٨/١

فى المشقّة وهو ما يتّسع له قدرة الإنسان . وانتصابه على أنّه مفعولٌ ثانٍ ليكلّف[١] وهذا خبرٌ جَزْم . نصّ الله تعالى على أنّه لا يكلّف العباد من وقت نزول الآية عبادةً من أعمال القلب أو الجوارح إلاّ وهى فى وُسع المكلَّف وفى مقتضى إدراكه وبِنْيته ، وبهذا انكشفت الكُرْبة عن المسلمين فى تأوّلهم أمر الخواطر[٢] فالله سبحانه بلطفه وإنعامه علينا وإن كان قد كلّفنا بما يشقّ ويثقل كثبوت الواحد للعشرة وهجرة الإنسان وخروجه من وطنه ومفارقة أهله ووطنه وعادته ، لكنّه لم يكلّفنا بالمشقات المثقّلة ولا بالأمور المؤلمة ، كما كلّف من قبلنا بقتل أنفسهم وقرض موضع البول من ثيابهم وجلودهم ، بل سهّل ورَفّق ووضع عنا الإصر والأغلال الّتى وضعها على من كان قبلنا فللّه الحمد والمنّة والفضل والنّعمة[٣] .

لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت : يريد من الحسنات والسّيّئات . قاله السّدّىّ وجماعة المفسّرين لا خلاف بينهم فى ذلك قاله ابن عطيّة . وهو مثل قوله : ولا تزر وازرةٌ وزر أخرى . ولا تكسب كلُّ نفسٍ إلاّ عليها . والخواطر ونحوها ليست من كسب الإنسان . وجاءت العبارة فى الحسنات بـ لها من حيث هى ممّا يفرح المرء بكسبه ويسرّ بها ، فتضاف إلى ملكه . وجاءت فى السّيّئات بـ عليها من حيث هى أثقال وأوزارٌ متحمَّلات صعبة ، وهذا كما تقول : لى مالٌ وعلىّ دين . وكرّر فعل الكسب فخالف بين التّصريف حُسْنًا لنمط الكلام كما قال . ﴿ فمهّل الكافرين أمهلهم رويدا ﴾ . قال ابن عطيّة : ويظهر لى فى هذا أنّ الحسنات هى ممّا تكتسب دون تكلّف ، إذ كاسبها على جادّة أمر الله تعالى ورسم شرعه ، والسّيّئات تكتسب ببناء المبالغة ، إذ كاسبها يتكلّف فى أمرها خرق حجاب نهى الله تعالى ويتخطّاه إليها ، فيحسن فى الآية مجىء التّصريفين إحرازاً لهذا المعنى[٤] ويقول الزّمخشرى[٥] : « فإن قلت : لم خصّ الخير بالكسب والشّرّ بالاكتساب ؟ قلت : فى الاكتساب اعتمال فلمّا كان الشّرّ ممّا تشتهيه النّفس وهى منجذبةٌ إليه وأمّارةٌ به كانت فى تحصيله أعمل وأجدّ فجعلت لذلك مكتسبةً

---

(١) البحر المحيط ٢/٣٦٦
(٢) تفسير القرطبىّ ١٢٣٧
(٣) تفسير القرطبىّ ١٢٣٨
(٤) تفسير القرطبىّ ١٢٣٨
(٥) الكشّاف ١/٣٠٨

فيه . ولمّا لم تكن كذلك فى باب الخير وصفت بما لا دلالة فيه على الاعتمال » ولأبى حيّان فى البحر المحيط[١] رأىٌ فى القضيّة يقول : « والصّحيح عند أهل اللّغة أنّ الكسب والاكتساب واحد . والقرآن ناطقٌ بذلك . قال الله تعالى : ﴿ كلّ نفسٍ بما كسبت رهينة ﴾ . وقال : ﴿ ولا تكسب كلّ نفسٍ إلاّ عليها ﴾ . وقال : ﴿ بلى من كسب سيّئةً وأحاطت به خطيئته ﴾ وقال : ﴿ بغير ما اكتسبوا ﴾ . ومنهم من فرّق فقال : الاكتساب أخصّ من الكسب لأنّ الكسب ينقسم إلى كسبٍ لنفسه ولغيره . والاكتساب لا يكون إلاّ لنفسه يقال : كاسب أهله ولا يقال : مكتسب أهله . قال الشّاعر :

ألَقَيْتَ كاسِبَهُمْ فى قعر مُظْلِمةٍ »

ربّنا لا تؤاخذنا : بالعقاب[٢] ومعنى المؤاخذة المعاقبة . وفاعل هنا بمعنى الفعل المجرّد نحو أخذ لقوله : فكلاً أخذنا بذنبه . وهو أحد المعانى الّتى جاءت لها فاعل[٣] .

إن نسينا أو أخطأنا : قال الأصمعىّ يقال : أخطأ سها وخَطِئ تعمّد[٤] .

أخطأنا : تركنا الصّواب لا عن عمدٍ كما آخذت به من قبلنا[٥] المعنى : اعف عن إثم ما يقع منّا على هذين الوجهين أو أحدهما ، كقوله عليه السّلام : رفع عن أمّتى الخطأ والنّسيان وما استكرهوا عليه ، أى إثم ذلك[٦] .

ربّنا ولا تَحْمِلْ علينا إصْرًا : أى ثِقْلاً[٧] والإصر الأمر الغليظ الصّعب والإصر الضّيق والذّنب[٨] والإصر العبء الّذى يأصر حامله أى يحبسه مكانه لا يستقلّ به لثقله ، استعير للتّكليف الشّاقّ من نحو قتل الأنفس وقطع موضع النّجاسة من الجلد والثّوب

---

(١) ٣٦٧/٢
(٢) الجلالين
(٣) البحر المحيط ٣٦٨/٢
(٤) البحر المحيط ٣٦٨/٢
(٥) الجلالين
(٦) تفسير القرطبىّ ١٢٣٩ وانظر تفسير ابن كثير ٣٤٢/١
(٧) تفسير الطّبرىّ ١٠٥/٣ وتفسير القرطبىّ ١٢٤٠
(٨) انظر تفسير القرطبىّ ١٢٤٠ وانظر البحر المحيط ٣٦٩/٢

وغير ذلك[١] وهذه الآية نظير :﴿ يريد الله بكم اليُسر ولا يريد بكم العسر . وماجعل عليكم فى الدّين من حرج . فاتّقوا الله ما استطعتم ﴾[٢] وكقول النّبى ﷺ : الدّين يُسْرٌ فيسّروا ولا تعسّروا ، اللّهم شقّ على من شقّ على أمّة محمّد ﷺ[٣] وجاء فى الحديث من طرقٍ عن رسول الله ﷺ أنّه قال : بعثت بالحنيفية السّمحة[٤]

كما حملته على الّذين من قبلنا : أى بنى إسرائيل من قتل النّفس فى التّوبة وإخراج ربع المال فى الزّكاة وقرض موضع النجاسة[٥] .

ربّنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به : قال قتادة : معناه لا تشدّد علينا كما شدّدت على من كان قبلنا . الضّحّاك : لا تحمّلنا من الأعمال مالا نطيق . وقال نحوه ابن زيد[٦] والطّاقة : القوة[٧] والقدرة على الشّىء ، وهى مصدرٌ جاء على غير قياس المصادر[٨] وجاء فى القاموس[٩] : « وقد طاقه طَوْقاً وأطاقه وعليه . والاسم الطّاقة » وقد جاء فى معجم مقاييس اللّغة[١٠] ما معناه أنّ الطّاء والواو والقاف أصلٌ صحيحٌ يدل على دَوْران الشّىء على الشّىء أن يَحُفّ به . فكلّ ما استدار بشىءٍ فهو طوق . وسمّى البناء طاقاً لاستدارته إذا عُقِد . والطَّيْلَسان طاق لأنّه يدور على لابسه . فأمّا قولهم أطاق هذا الأمر إطاقةً ، وهو فى طوقه ، وطوّقتك الشّىء ، إذا كلّفتُكه فكلّه من الباب وقياسه ، لأنّه إذا أطاقه فكأنّه قد أحاط به ودار به من جوانبه .

واعف عنّا واغفر لنا وارحمنا : للعلماء اجتهاداتٌ لطيفةٌ فى هذا المجال ، فلنبدأ بالجانب اللّغوىّ . يقول ابن فارس فى حقّ العفو[١١] : « العين والفاء والحرف المعتل أصلان يدلّ أحدهما على ترك الشّىء والآخر على طلبه ..... فالأوّل : العفو : عفو الله تعالى عن خلقه ، وذلك تركه إيّاهم فلا يعاقبهم ، فضلاً منه . قال الخليل : وكلّ من استحقّ

---

(١) الكشّاف ٣٠٨/١
(٢) البحر المحيط ٣٦٦/٢
(٣) تفسير القرطبى ١٢٤٠
(٤) تفسير ابن كثير ٣٤٣/١
(٥) الجلالين
(٦) تفسير القرطبى ١٢٤١
(٧) الجلالين
(٨) البحر المحيط ٣٦٩/٢
(٩) « طوق » .
(١٠) طوق ٤٣٣/٣ وطوف ٤٣٢/٣
(١١) معجم مقاييس اللّغة « العفو » ٥٦/٤

عقوبةً فتركته فقد عفوتَ عنه . يقال عفا عنه يعفو عَفْواً . وهذا الّذى قاله الخليل صحيح » . فمعنى : واعف عنّا ، أى عن ذنوبنا[١] ويقول ابن فارس فى حقّ الغفران[٢] : « الغين والفاء والرّاء عُظْمُ بابه السَّتر ، ثمّ يشذّ عنه ما يذكر . فالغَفْر : السَّتر . والغُفران والغَفْر بمعنًى . يقال : غفر الله ذنبه غَفْرًا ومَغْفِرةً وغُفراناً . قال فى الغَفْر :

فى ظلّ من عَنَتِ الوجوه له مَلِكِ الملوكِ ومالِكِ الغَفْر »

فمعنى واغفر لنا أى استر على ذنوبنا[٣] وفى معنى القول : واعف عنّا واغفر لنا ، يقول ابن كثير[٤] : « وقوله : واعف عنّا ، أى فيما بيننا وبينك ممّا تعلمه من تقصيرنا وزللنا . واغفر لنا . أى فيما بيننا وبين عبادك فلا تظهرهم على مساوينا وأعمالنا القبيحة » .

وارحمنا : أى تفضّل برحمةٍ مبتدئاً منك علينا[٥] .

وإليك فى هذا الشّأن الكلام العظيم لأبى حيّان[٦] : « وجاءت مقابلة كلّ جملةٍ من الثّلاث السّوابق جملة . فقابل : لا تؤاخذنا بقوله : ﴿ واعف عنّا ﴾ . وقابل : ﴿ ولا تحمل علينا إصراً ﴾ ، بقوله : ﴿ واغفر لنا ﴾ . وقابل قوله : ﴿ ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به ﴾ بقوله : ﴿ وارحمنا ﴾ . لأن من آثار عدم المؤاخذة بالنّسيان والخطأ العفو . ومن آثار عدم حمل الإصر عليهم المغفرة . ومن آثار عدم تكليف ما لا يطاق الرّحمة » ويقول[٧] : « طلبوا العفو وهو الصّفح عن الذّنب وإسقاط العقاب ثمّ ستره عليهم صوناً لهم من عذاب التّخجيل ، لأنّ العفو عن الشّىء لا يقتضى ستره فيقال : عفا عنه إذا وقفه على الذّنب ثمّ أسقط عنه عقوبة ذلك الذنب فسألوا الإسقاط للعقوبة أوّلاً لأنّه الأهمّ إذ فيه التّعذيب الجسمانىّ والنّعيم الرّوحانىّ بتجلّى البارئ تعالى لهم . وقال

---

(١) تفسير القرطبىّ ١٢٤١
(٢) معجم مقاييس اللّغة « غفر » ٣٨٥/٤
(٣) تفسير القرطبىّ ١٢٤١
(٤) تفسير ابن كثير ٣٤٣/١
(٥) تفسير القرطبىّ ١٢٤١
(٦) البحر المحيط ٣٦٨/٢
(٧) البحر المحيط ٣٧٠/٢

الرّاغب : العفو إزالة الذّنب بترك عقوبته . والغفران ستر الذّنب وإظهار الإحسان بدله . فكأنّه جمع بين تغطية ذنبه وكشف الإحسان الّذى غطّى به . والرّحمة إفاضة الإحسان إليه . فالثّانى أبلغ من الأول . والثّالث أبلغ من الثانى . انتهى » .

أنت مولانا : أى وليّنا وناصرنا . وخرج هذا مخرج التّعليم للخلق كيف يدعون . روى عن معاذ بن جبلٍ أنّه كان إذا فرغ من قراءة هذه السّورة قال آمين . قال ابن عطيّة : هذا يظن به أنّه رواه عن النّبىّ ﷺ . فإن كان ذلك فكمال ، وإن كان بقياس على سورة الحمد من حيث هنالك دعاءٌ وهنا دعاءٌ فحسن[1] .

فانصرنا على القوم الكافرين : أدخل الفاء إيذاناً بالسّببيّة لأنّ كونه تعالى مولاهم ومالك تدبيرهم وأمرهم ينشأ عن ذلك النُّصرة لهم على أعدائهم كما تقول : أنت الشّجاع فقاتل . وأنت الكريم فجد علىّ . أى أظهرنا عليهم بما تحدث فى قلوبنا من الجرأة والقوّة وفى قلوبهم من الخور والجبن[2] وفى الجلالين : « فانصرنا على القوم الكافرين : بإقامة الحجّة والغلبة فى قتالهم فإنّ من شأن المولى أن ينصر مواليه على الأعداء . وفى الحديث لمّا نزلت هذه الآية فقرأها ﷺ قيل له عقب كلّ كلمة : قد فعلت » .

قرّرت أولى آيات القِسمْ الثّلاث أنّ لله ما فى السّماوات وما فى الأرض وأنّ الله سبحانه وتعالى محاسبٌ العباد على ما أبدوا ممّا فى أنفسهم وما أخفوا ولله الأمر إن شاء غفر بفضله وإن شاء عذّب بعدله . وقد أشفق الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم من المحاسبة على هذا النّحو وفهموا أنّهم مؤاخذون على وساوس النّفس وبيّنوا للمصطفى ﷺ إشفاقهم فأمرهم ﷺ أن يقولوا سمعنا سماع تدبّر وأطعنا ، وألا يكونوا كأهل الكتابين الّذين قالوا بلسان المقال أو الحال : سمعنا وعصينا ، أى سمعنا قولك أيّها الرّسول إلينا من الله تعالى إلينا وعصينا أمرك . وامتثل المسلمون الأمر . وكافأهم الله تعالى على السّمع والطّاعة ، وأثنى عليهم فى الآية الكريمة التّالية ، وأرشدهم إلى الدّعاء الّذى يسألون به الله تعالى .

---

(١) تفسير القرطبىّ ١٢٤١ (٢) البحر المحيط ٢/٣٧٠

ففعلوا . فنزلت هذه الآية الكريمة الثّالثة والأخيرة فى السّورة الكريمة وفيها التّخفيف من الله تعالى والرّحمة ، وفيها التّخصيص لعموم المحاسبة فى الآية الكريمة الأولى ، وفيها من فضل الله تعالى على هذه الأمّة ما لا يستطيع العباد أن يقوموا بما يجب عليهم من شكرٍ لله تعالى عليه وثناء له جلّ وعلا بما هو أهلٌ له . فهنالك التّخفيف من الله تعالى فى القول : ﴿ لا يكلف الله نفسا إلاّ وسعها ﴾ وهنالك الإرشاد إلى كيفيّة الدّعاء المعمّق لذلك التّخفيف المقوّى للُيسْر الّذى أراده الله تعالى بنا لا العسر ، وإلى كيفيّة الدّعاء لنيل عفو الله تعالى وكسب مغفرته واستمطار رحماته ، وهنالك التّنبيه إلى أنّ العزّة لله ولرسوله وللمؤمنين وأنّ الله مولى الّذين آمنوا وأنّ الكافرين لا مولى لهم وأنّ من كان يريد العزّة فللّه العزّة جميعاً . قال تعالى : ﴿ لا يكلّف الله نفساً إلاّ وسعها ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت . ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا . ربّنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الّذين من قبلنا . ربنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به . واعف عنّا واغفر لنا وارحمنا . أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ .

وبعد هذه النّظرة الأولى السّريعة إلى الآية الكريمة نحن بحاجةٍ إلى نَظرةٍ أخرى مع كلّ جزئيّةٍ على حدة وكلّ جوهرةٍ منفردة . فمع هذه الجزئيّة الكريمة : ﴿ لا يكلّف الله نفساً إلاّ وسعها ﴾ وإنّ أولّ ما يفهمه الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم أنّهم ليسوا محاسبين على وساوس أنفسهم وخواطر قلوبهم ما لم يترجموا تلك الوساوس والخواطر إلى أقوالٍ وأفعالٍ وفى تلك الحال يشمل تلك الأقوال ومن باب أولى الأفعال قوله عزّ من قائل[1] : ﴿ ما يلفظ من قولٍ إلاّ لديه رقيبٌ عتيد ﴾ . وعن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ . إنّ الله تجاوز لى عن أمّتى ما حدّثت به أنفسها ما لم تكلّم أو تعمل[2] .

ويلفت نظرنا فى الجزئيّةَ الكريمة بعد ذلك القول : ﴿ نفساً ﴾ والقول : ﴿ إلاّ وسعها ﴾ وبشأن القول : ﴿ نفساً ﴾ يشدّنا التّنكير إلى اللّفظ شدّاً قويّاً إذ أنّه قادرٌ على الإيحاء بأنّه يشمل كلّ نفسٍ . فالله سبحانه وتعالى لا يكلّف كلّ نفس ولا يحمّل أىّ نفسٍ إلاّ وسعها . وبشأن القول : ﴿ إلاّ وسعها ﴾ من ألطف ما يصحّ القول فى حقّه إنّ لفظ

---

(١) سورة ق ١٨

(٢) تفسير ابن كثير ١/٣٣٩ .

الوسع ولفظ الطّاقة جاءا معاً فى هذه الآية الكريمة : ﴿ ربّنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به ﴾ ومن المقارنة بين اللّفظين « الوسع » و « الطاقة » تتّضح معانى اللّفظين والمستوى الدّلالىّ الّذى ينتهى إليه كلّ من اللّفظين ، يقف عنده ولا يتخطّاه . إنّ لفظ الوسع يدلّ على ما تتّسع له قدرة الإنسان ولا يستنفد كلّ طاقته بل يستطيع المكلّف أن يقوم بما كلّف به دون أن يشعر بأنّه يحمل عبئاً ولكنّه يشعر بأنّه يحمل واجباً ويقوم بأدائه ويبقى لديه فضلٌ من قدرة وفائضٌ من قوّة . فإذا تحوّلنا إلى لفظ طاقة استطعنا أن نفهم أنّ هذا اللّفظ يفيد استعمالهُ مساواة العمل الّذى يقوم به المكلّف الكامل قوّته واستنفاده لكلّ قدرته واستهلاكه لجميع طاقته ، فلا يبقى لديه وراء القيام بذلك العمل فضلٌ من قدرة أو استعداد لاستمرار العمل بالمستوى السّابق من الكفاية فضلاً عن تجاوز ذلك المستوى إلى ما هو أعلى منه وأرفع .

وفى ضوء فهم الوسع بأنّه ما تتسع له قدرة الإنسان ويبقى لديه بعد ذلك زيادة قدرة نستطيع أن نفهم معنى التّكليف فى القول : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها ﴾ بمعنى أنّ التّكليف وإن كان ذا علاقةٍ أساساً بالمشقّة الّتى يقترن بها كُلْفةٌ فى الوجه وهى عبارةٌ عن سوادٍ أُشْرِب حُمْرةً كالسُّفعة ، وهى كُلْفةٌ متحقّقةٌ أو متصوّرة ، فإنّ هذه المشقّة ومتعلّقاتها منفيّةٌ فى القول : ﴿ لا يكلّف الله نفساً إلاّ وسعها ﴾ وفى مقابل نفى المشقّة إثبات تحميل الإنسان مسئوليته فى حدود الوسع وتكليفه فى حدود الطّاقة . والحقيقة أنّ هذه المعانى الجميلة الجليلة من تحميل الإنسان فى حدود قدرته المعتادة ، والّتى هى مظهرٌ من مظاهر رحمة الله تعالى الّتى وسعت كلّ شىءٍ تذكّرنا بمثل قوله عزّ من قائل فى هذه السّورة الكريمة[١] : ﴿ يريد الله بكم اليُسْر ولا يريد بكم العُسْر ﴾ وقولِه فى سورة الحج[٢] : ﴿ وما جعل عليكم فى الدّين من حرج ﴾ وقوله تعالى فى سورة التّغابن[٣] ﴿ فاتّقوا الله ما استطعتم ﴾ .

وهذه الجزئيّة الكريمة : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها ﴾ نستطيع أن ننظر إليها

---

(١) سورة البقرة ١٨٥ (٢) الآية ٧٨

(٣) الآية ١٦

من زاوية العموم ومن زاوية الخصوص ، بمعنى أن رحمة الله سبحانه وتعالى تشمل كلّ عباد الله تعالى المكلّفين بلا استثناء ، وأنّ ثمّة رحمةً خاصّة وراء ذلك تقتضيها حال المكلّف . وهذا القول الموجز بحاجةٍ إلى شيءٍ من بسط القول .

إنّه فيما يتّصل بالرحمة من جهة العموم وشمولها كلّ المكلّفين نستطيع أن نتبيّنها فى كلّ ما كلّفنا الله تعالى به وأوجبه أو فرضه علينا . ولو أنّا اتّخذنا من أركان الإسلام الأربعة بعد الشّهادتين دليلاً على ذلك لاستطعنا أن نتبيّن هذه الحقيقة بشأن كلّ ركنٍ من أركان الإسلام الأربعة إقام الصّلاة وإيتاء الزّكاة وصوم رمضان وحجّ بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلا . إنّ المكلّف يستطيع بفضلٍ من الله تعالى وعونٍ أن يقوم بهذه الأركان كلّها وهو فى الوقت ذاته قادرٌ على أن يقوم بعد صلاة الفرض بالنّوافل ، وبعد الزّكاة بالصدّقة ، وبعد صيام شهر رمضان بصيام النّوافل ، وبعد فريضة الحجّ إن كان مستطيعاً بالحجّ بعد ذلك وبأداء العمرة وهكذا . وبهذا يتبيّن أنّ تكليف الله سبحانه وتعالى لنا بهذه الأركان هو فى دائرة الوسع ، بمعنى أنّه بعد القيام بكلٍّ منها لدى الشّخص فضلٌ من قوّة وسعةٌ من قدرة ، ولا يكاد يستنفد أيٌّ منها فى حقّ القادر كلّ طاقته أو قدرته .

وإنّ من ألطف ما يفطن له المتأمّل لهذه الأركان من النّظرة الأولى جمال التّوزيع لهذه الأركان على الدّورات الزّمنيّة المختلفة ابتداءً باليوم باعتباره أوّل وحدة زمانيّة طبيعية كاملةٍ وانتهاءً بالعام من زاوية النّظر إلى الرّكن باعتبار الوحدة الزّمانيّة الطبيعيّة الأخيرة أو الكبرى ، أو انتهاءً بعمر الإنسان من زاوية النظر إلى الرّكن باعتبار حياة الإنسان دورةً كبرى له خاصّةً به ومقصورة عليه . ويقترن بالدّورة الزّمنيّة الأولى أو الصّغرى الصّلاة ويقترن بالدّورة الزّمنيّة الأخيرة أو الكبرى الحجّ إلى بيت الله تعالى الحرام .

إن الصّلوات الخمس المفروضة على المسلم فى اليوم واللّيلة ومجموعها سبع عشرة ركعة موزّعةً على ساعات اليوم الأربع والعشرين توزيعاً جميلاً ورائعاً . فالمسلم يستقبل يومه بصلاة الفجر . وبعد صلاة الفجر يأتى وقت العمل فى العادة ولا يتخلّل وقت العمل

---

(١) سورة البقرة ١٨٥ (٢) الآية ٧٨

(٣) الآية ١٦

صلاةٌ مفروضة حتّى يأتى وقت الظّهر . وبالنّظر إلى الجزيرة العربيّة واشتداد الحرارة فيها صيفاًوفى أغلب أوقات العام ، يستطيع المرء بعد صلاة الظّهر وتناول طعام الغداء أن ينال قسطاً من الرّاحة . وعقب الرّاحة يستقبل نشاطه بصلاة العصر ، ويستطيع المرء أن يستغلّ نشاطه عقب صلاة العصر فى القيام ببعض الأعمال . وكما استقبل اليوم بصلاة الفجر يودّع نهاره بصلاة المغرب ، ويودّع يومه بصلاة العشاء . واللّطيف فى الأمر أنّ الوقت بين طلوع الفجر وطلوع الشّمس يكاد يساوى الوقت بين غروب الشّمس أى وقت حلول صلاة المغرب وبين حلول وقت صلاة العشاء وغياب الشّفق . وبعد توديع اليوم بالصّلاة وعبادة الله تعالى يستطيع المرء أن ينال قسطاً وافراً من النّوم . ولا يتخلّل الوقت بين صلاة العشاء وصلاة الفجر صلاةٌ مفروضة . ويستطيع المرء فى غير الأوقات المنهىّ فيها صلاة النّفل أن يملأ وقته بالصّلاة . وبهذا يتبيّن من جمال توزيع الصّلوات المفروضة على الأوقات وجلال هذا التّوزيع أن مصلحة الإنسان وعدم تكليفه فوق وسعه وإرادة اليسر به ورفع الحرج عنه هى الأهداف الّتى توخّاها الشّارع الحكيم . ويستطيع المرء إن شاء أن يستنفد ما تبقى من قوّته وطاقته فى عبادة الله تعالى كما شاء ابتداءً بالصّلاة النّافلة .

وإذا كانت نظرتنا قد اتّجهت إلى أصغر الدّورات الزّمنيّة وهى اليوم واللّيلة فإنّ النّظرة بعد ذلك تستطيع أن تتجاوز اليوم إلى الأسبوع مثلاً وذلك فى هيئة صلاة الجمعة الّتى لها خصائصها وصفاتها ومتعلّقاتها ومن بين ذلك خطبة الجمعة الّتى تأتى تباعاً عقب دورةٍ كاملةٍ للأسبوع تكون فى أثنائها المسائل قد تجسّدت والنّفوس الرّاغبة فى معالجة هذه المسائل والإصغاء إلى آراء العلماء فيها قد تهيّأت . وبهذا تقوم خطبة الجمعة الأسبوعيّة بمتابعتها لأفراد الأمّة وطرد أدرانها تباعاً بما يقوم به الوضوء المتتالى والغسل المتتابع فى نظافة الجسد وطهره .

وإذا تجاوزنا هاتين الدّورتين الأوليين إلى دورة ثالثةٍ أكبر هى الشّهر تذكّرنا صيام رمضان . وحينما نتأمّل قوله تعالى : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها ﴾ ونتأمّل حظّ شهر رمضان المبارك من هذا اليُسْر نصادف ابتداءً رحمة الله تعالى بنا فى كون الصّيام شهراً

واحداً فقط من اثنى عشر شهراً فى العام ، كما نصادف رحمة الله تعالى بعد ذلك فى كون الصّيام نهاراً فقط ، فمن حقّ المرء أن يأكل ويشرب ويستمتع بالطّيّبات حتّى يتبيّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثمّ يتمّ الصّيام إلى اللّيل بمعنى غروب الشّمس . ولا ننسى النّهى عن صيام الوصال ، ولا ننسى الثّواب الجزيل الّذى أعدّه الله سبحانه وتعالى للصّائمين ، وللمصلّين وللعابدين عموماً .

وإذا كنّا نظرنا إلى الصّيام من زاوية كونه شهراً واحداً فى العام ففى الإمكان أن ننظر إلى الزّكاة ، زكاة النّقدين الذّهب والفضّة بخاصّة[١] وقد بلغا النّصاب من زاوية الحول ، السّنة أو العام ، أى من زاوية الوحدة الزّمنيّة الكبرى . إنّ الصّيام إذا كان شهراً واحداً فى العام وليس فى كلّ العام وليس أكثر من شهر ، فإنّ الزّكاة تجب فى حقّ النّقدين مرّةً واحدةً فى العام كلّه وليس أكثر من مرّة . وهى مبلغ زهيدٌ من المال لا يضرّ الغنىّ بل ينفع الفقير ، وفوق ذلك هى مظهرٌ من أهمّ مظاهر التّكافل . هذا إلى كون ربّ العزّة قد جعلها حقّاً للفقير فى مال الغنىّ الّذى آتاه الله تعالى إيّاه . وينبغى أن نكون على ذُكْرٍ بثواب المزكّين الجزيل من الله تعالى والمنفقين أموالهم فى سبيل الله تعالى وقد أفاضت فى هذه المسائل سورة البقرة بأكثر من أىّ سورة أخرى من سور القرآن الكريم .

فإذا تحولنا إلى النّظر لهذه الوحدة الزمنيّة الكبرى أعنى العام من زاوية كونها ابتداءً ، أو إلى النّظر للإنسان من زاوية كون عمره أكبر وحدة زمنيّة فى حقّه ، صادفنا الحجّ إلى بيت الله تعالى الحرام . ولا نستطيع أن نتحدّث عن الحجّ إلى بيت الله تعالى الحرام دون أن نذكر شروط الاستطاعة الّذى قرّره القرآن الكريم والّذى ذكره فور تقرير حقّ الله تعالى على العباد فى الحجّ إلى البيت الحرام . قال عزّ من قائل[٢] : ﴿ ولله على النّاس حِجّ البيت من استطاع إليه سبيلاً . ومن كفر فإنّ الله غنىٌّ عن العالمين ﴾ إنّ الحجّ إلى بيت الله تعالى الحرام مرّةٌ واحدةٌ كلّ عام ، ولا يجب على المسلم المستطيع أن يقوم به فى كلّ عمره أكثر من مرّة واحدة . ولله الفضل والمنّة .

---

(١) انظر مثلاً فقه السّنّة ١/٢٨٦ فما بعدها فى الأموال الّتى تجب فيها الزّكاة .

(٢) سورة آل عمران ٩٧

وكما يستطيع المصلّى والمزكّى والصّائم أن يقوم بعد الفريضة بما شاء الله تعالى له من النّوافل يستطيع الحاجّ .

ويقاس على هذه الأركان الأربعة سائر ما تعبّدنا الله سبحانه وتعالى به .

ويعقب هذه الرّحمة العامّة الّتى أخذت فى الاعتبار وسع عباد الله تعالى فلم تكلّفهم بما يشقّ عليهم وبما هو فوق وسعهم رحمةٌ خاصّة بذوى الأعذار . وقد تبيّنّا فى سورة البقرة الكريمة تخفيف الله سبحانه وتعالى عن عباده الّذين لم يستطيعوا ، بسبب الخوف مثلاً ، أن يؤدّوا الصلاة قائمين . قال تعالى[١] : ﴿ حافظوا على الصّلوات والصّلاة الوسطى وقوموا لله قانتين . فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علّمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ وجاء بشأن صيام رمضان قوله تعالى[٢] : ﴿ شهر رمضان الّذى أنزل فيه القرآن هدًى للنّاس وبيّناتٍ من الهدى والفرقان . فمن شهد منكم الشّهر فليصمه . ومن كان مريضاً أو على سَفَرٍ فعدّةٌ من أيّامٍ أُخَر . يريد الله بكم اليُسْر ولا يريد بكم العُسْر ولتُكملوا العِدّة ولتكبّروا الله على ما هداكم ولعلّكم تشكرون ﴾ وجاء بشأن الحجّ والعمرة قوله تعالى[٣] : ﴿ وأتموا الحجّ والعمرة لله . فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى . ولا تحلقوا رءوسكم حتّى يبلغ الهدى مَحِلَّه . فمن كان منكم مريضاً أو به أذًى من رأسه ففديةٌ من صيامٍ أو صدقةٍ أو نسك ﴾ .

وهكذا يتجلّى فضل الله سبحانه وتعالى العظيم علينا نحن المسلمين أتباع محمّد بن عبد الله ﷺ بالنّظر إلى الجزئيّة الكريمة : ﴿ لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها ﴾ من زاوية الرّحمة بمعنييها العامّ والخاصّ .

واستمراراً للرّحمة ، وجمعاً بين الفضل والعدل يجىء القول : ﴿ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ وإنّ أوّل ما يلفت النّظر فى الجزئيّة الكريمة الجارّ والمجرور فى الموضعين « لها » و « عليها » ومعروف أنّ النّفس إنّما تحبّ أن يكون لها المحبوب ، ولهذا جاء الجارّ والمجرور لها الدّالّ على الملكيّة وعلى المحبوب . وقد جاء مع هذا الجارّ والمجرور الجملة

---

(١) سورة البقرة ٢٣٨ ، ٢٣٩ (٢) سورة البقرة ١٥٨

(٣) سورة البقرة ١٩٦

الّتى تتمشّى معه وهى جملة كسب . أمّا الجار والمجرور « عليها » فإنّه يتعلّق بالأوزار وما ترغم النّفس على حمله . حقّاً النّفس هى الّتى ترتكب الذّنب ولكنّها راغبةٌ عن تحمّل تبعاته ، وذلك ليس من حقّها ، ومن ثمّ هى ترغم على حمل الوزر وتبعاته . وهنا تجىء الجملة الّتى تتمشّى مع هذا الجارّ والمجرور ومع المرغوب عنه وهى جملة اكتسب .

وكما تبيّنّا البون الشّاسع بين الجارّ والمجرور فى الموضعين « لها » و « عليها » نستطيع أن نتبيّن البون الشّاسع فى معنى الجملتين « كسب » و « اكتسب » إنّ جملة كسب توحى بسهولة ما يكسبه الإنسان فى مجال الخيرات ويسر السّير فى الصّراط المستقيم لأنّه طريقٌ واضح المعالم يأمن سالكه ولا يخاف عواقبه . إنّه الطّريق الّذى يستنير بضياء تعاليم القرآن الكريم وتعاليم أشرف الأنبياء والمرسلين ، وذلك هو الهدى من الله تعالى وقد تمثل فى القرآن الكريم وفى سنّة المصطفى ﷺ المبيّنة له . قال عزّ من قائل[١] : ﴿ فمن اتّبع هداى فلا يضلّ ولا يشقى ﴾ قال ابن عبّاس : فضمن الله لمن اتّبع القرآن ألاّ يضلّ فى الدّنيا ولا يشقى فى الآخرة[٢] وقال تعالى[٣] : ﴿ فاستمسك بالّذى أوحى إليك إنّك على صراطٍ مستقيم . وإنّه لذكرٌ لك ولقومك وسوف تُسْألون ﴾ فالقرآن الكريم عزّ المصطفى ﷺ وشرفه وعزّ أمّته ﷺ وشرفها .

وبالتّحوّل إلى جملة : ﴿ وعليها ما اكتسبت ﴾ والوقوف على ما يقترن بالاكتساب من اعتمال واجتهاد ومشقةٍ وعنت نستطيع أنّ نتبيّن فى هذا القول : ﴿ وعليها ما اكتسبت ﴾ معنًى قريبًا من قوله تعالى[٤] : ﴿ قلّ هل ننبّئكم بالأخسرين أعمالاً . الّذين ضلّ سعيهم فى الحياة الدّنيا وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنيعا ﴾ إنّ من النّاس من يتحقّق فيه مثل قوله تعالى[٥] : ﴿ إنّ الّذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدّوا عن سبيل الله فسينفقونها ثمّ تكون عليهم حسرةً ثمّ يغلبون . والّذين كفروا إلى جهنّم يُحْشَرون ﴾ وإنّ منهم من يهجر الصّراط المستقيم المؤدّى إلى الله تعالى ويتنكّب الرّيح الهادئة الطّيّبة الرّخاء ، إلى صراط الجحيم ، صراط الشّيطان الرّجيم والنّفس الأمّارة بالسّوء . ومع أنّ هذا الفريق من النّاس يصحّ أن ينال أوفى حظٍّ من متاع الدّنيا الزّائل سالكاً كلّ طريق

---

(١) سورة طه ١٢٣
(٢) تفسير القرطبى ص ٧
(٣) سورة الزّخرف ٤٣ ، ٤٤
(٤) سورة الكهف ١٠٣ و ١٠٤
(٥) سورة الأنفال ٣٦

معوجّ وسبيل ملتوية ، فإنّه فى حقيقة أعماقه يشعر بأنّه شقىّ وليس سعيداً كما يبدو فى الظّاهر ، وهو فى سلوكه الطّريق المعوجّة ، وسيره فى اتّجاه معاكسٍ لما أمر الله تعالى وأمر رسوله الكريم يبذل الكثير والكثير من الجهد والمشقّة كى يتخطّى حدود الله تعالى وكى يأتى ما حرّم الله تعالى . لكلّ ذلك حسن مجىء جملة «اكتسب» دليلاً على المجهود المضنى الّذى يبذله كلّ من حارب الله تعالى ورسوله الكريم بالمعاصى . وقد هيّأ لمجىء هذه الجملة وقوّى من معناها الجارّ والمجرور « عليها » إنّ الجارّ والمجرور « عليها » يدلّ على الأثقال الّتى يحملها المذنب على ظهره والأوزار ، وإنّ جملة : « اكتسب » تدلّ على المجهود الّذى يبذله ذلك الّذى خسر الدّنيا والآخرة بينما هو يظنّ أنّه يحسن صنعاً ، ربّما طمعاً فى عفو الله تعالى ، وربّما أملاً فى التّوبة وغفل هذا الّذى يتّخذ آيات الله هزوًا عن مثل قوله تعالى[1] : ﴿ إنّما التّوبة على الله للّذين يعملون السّوء بجهالةٍ ثمّ يتوبون من قريبٍ فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً . وليست التّوبة للّذين يعملون السّيّئات حتّى إذا حضر أحدَهم الموتُ قال إنّى تبت الآن ولا الّذين يموتون وهم كفّار . أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليما ﴾ .

حقّاً إنّ فضل الله تعالى لا حدود له ورحمته وسعت كلّ شىءٍ ، وحقًّا إنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذى يقبل التّوبة عن عباده ويعفو عن السّيّئات ويغفر الذّنوب ، وحقًّا إنّ الإنسان بعد أن يتفضّل الله تعالى بقبول توبته يعود مثل الّذى لا ذنب له ومثل الثّوب الّذى رتق بعد فتق . ولكن حقًّا كذلك أنّ الثّوب غير المفتوق أصلاً خيرٌ من الثّوب الّذى رتق بعد فتق . إنّ هذه المعانى نستطيع أن نتبيّنها من القول : ﴿ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ .

وتعميقاً لعدم المؤاخذة على الخواطر وما توسوس به النّفس ، وتأكيداً لمعنى الجزئيّة الكريمة الأولى فى الآية : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها ﴾ يلقّننا ربّ العزّة هذا الدّعاء : ﴿ ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ إن فضل الله سبحانه وتعالى قد

---

(١) سورة النّساء ١٧ ، ١٨

تجلّى من ذى قبل فى العفو عمّا جال من خواطر ، وها هو ذا فضل الله تعالى يُتْبَع بإحسانه ، بكرمه وامتنانه فى القول : ﴿ ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ إنّ ربّ العزّة يلقّننا كيفيّة دعائه بشأن ما بدر منا رغماً عنّا ممّا لا سلطة لنا عليه ، بأن نسأله جلّ وعلا ألا يؤاخذنا وألا يعاقبنا إن نسينا أو أخطأنا . وإنّه بالنّظر إلى الخواطر المعفوّ عنها وإلى النّسيان والخطأ يتبيّن أنّ ثمّة تدرّجاً لطيفاً ، من الخواطر الّتى لا سلطة للإنسان عليها مطلقاً إلى النّسيان الّذى يتمّ بفعل الشّيطان الرّجيم فعلى الإنسان أن يستعيذ بالله من الشّيطان الرّجيم وقد جاء فى سورة الكهف[1] قوله تعالى : ﴿ قال أرأيت إذ أوينا إلى الصّخرة فإنّى نسيت الحوت وما أنسانيهُ إلاّ الشّيطان أن أذكره ﴾ وربّما سبق إلى روع الإنسان أنّه مؤاخذٌ على نسيانه ، بسبب ما يرتكب من أجله من أمورٍ مرغوبٍ عنها ، وإنّ ربّ العزّة يرشدنا إلى كيفيّة الدّعاء فيما لو صادفتنا حالة نسيان . ومن البيّن أنّ دور الإنسان بشأن النّسيان أكبر من دوره تجاه الخواطر ، كما أنّ دور الإنسان تجاه الخطأ أكبر من دوره تجاه الخواطر والنّسيان معاً . حقًّا إنّ المخطىء يريد الصّواب أصلاً فيقع فى الخطأ ، ويظلّ مع ذلك يشعر فى أعماقه بأنّ دوره أكثر إيجابيّة بشأن الخطأ الّذى يتمّ فى حالة الوعى الكامل أحياناً من دوره بشأن الخواطر الّتى لا يدله فيها ، وبشأن النّسيان الّذى يتمّ عادةً فى حالة عدم الوعى . إنّ ربّ العزّة لا يؤاخذ عباده على الخواطر والنّسيان والخطأ وقد جاء فى الحديث الّذى روته أمّ الدّرداء أنّ النّبىّ ﷺ قال : إنّ الله تجاوز لأمّتى عن الخطأ والنّسيان والاستكراه[2] .

وإنّ وقوف الآية الكريمة عند النّسيان والخطأ ، وقبل ذلك الوقوف ضمنًا عند الخواطر معناه أنّ تجاوز ربّ العزّة وعدم المؤاخذة على الإطلاق شاملٌ لهذه الحالات الثّلاث وحدها ، وإنّ الإنسان وراء ذلك مؤاخذ ، وهو بين يدى ربّه جلّ وعلا أمام فضل الله تعالى بالعفو وأمام عدل الله تعالى بالمؤاخذة .

إنّ تكليف الله تعالى كلّ نفسٍ بما تتّسع له قدرتها . وإنّ رحمته جلّ وعلا الّتى وسعت كلّ نفس بالتّجاوز عن الخواطر والنّسيان والخطأ ، تمتدّ وتتسع كى تشمل أصل

---

(١) الآية ٦٣

(٢) تفسير ابن كثير ١/٣٤٣

التّكليف . وإنّ الآية الكريمة فى جزئيّتها التّالية لترشد إلى الكيفيّة الّتى يعرف بها شمول الرّحمة أصل التّكليف وذلك عن طريقة معرفة حظّ الأمم السّابقة من صوارم الأوامر وقوارع الزّواجر . قال تعالى : ﴿ ربّنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الّذين من قبلنا ﴾ إنّ الإرشاد إلى حظّ هذه الأمّة الموفور من رحمة الله تعالى والتّخفيف عنها يتمّ فى هيئة تلقين هذه الأمّة كيفيّة الدّعاء بألاّ يحمل الله سبحانه وتعالى عليها إصراً كما حمله على الّذين من قبلها ، وثِقْلاً كالّذى وضعه جلّ وعلا على أهل الكتاب من قبلنا . إنّ فى إمكاننا ، فى هذا الشّأن ، أن نستأنس ببعض آى الذّكر الحكيم . قال تعالى[١] : ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنّكم ظلمتم أنفسكم باتّخاذكم العِجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ، ذلكم خيرٌ لكم عند بارئكم فتاب عليكم . أنّه هو التّوّاب الرّحيم ﴾ فتوبة بنى إسرائيل من عبادة العجل تتمّ بقتل من لم يعبد العجل من عبد العجل بأن يمكّنه من نفسه كى يقتله ويزهق روحه . وجاء فى سورة النساء[٢] عن بنى إسرائيل قوله تعالى : ﴿ فبظلم من الّذين هادوا حرّمنا عليهم طيّبات أُحِلّت لهم وبصدّهم عن سبيل الله كثيرا . وأخذهم الرِّبا وقد نُهُوا عنه وأكْلِهِمْ أموالَ النّاس بالباطل . واعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليما ﴾ وجاء فى سورة الأنعام[٣] عن بنى إسرائيل قوله تعالى : ﴿ وعلى الّذين هادوا حرّمنا كل ذى ظُفُر ، ومن البقر والغنم حرّمنا عليهم شحومهما إلاّ ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم . ذلك جزيناهم ببغيهم وإنّا لصادقون ﴾ جاء فى الحديث من طُرُقٍ عن رسول الله ﷺ أنّه قال : بعثت بالحنيفيّة السّمحة[٤] وروى أنّ النّبىّ ﷺ قال : الدّين يُسْرٌ فيسّروا ولا تُعَسّروا ، اللّهمّ شقّ على من شقّ على أمّة محمّدٍ ﷺ[٥] .

وإذا كانت الجزئيّة الكريمة السّابقة فى نظرتها إلى الأمّة الإسلامية الّتى ترشدها إلى كيفيّة دعائها الله سبحانه وتعالى ألاّ يحمل عليها إصراً قد أخذت فى الاعتبار أتباع الأنبياء السّابقين الّذين حمل الله تعالى عليهم الإصر والأغلال فإن الجزئيّة الكريمة التّالية : ﴿ ربّنا

---

(١) سورة البقرة ٥٤
(٢) الآية ١٦٠ ، ١٦١
(٣) الآية ١٤٦
(٤) تفسير بن كثير ٣٤٣/١
(٥) تفسير القرطبى ١٢٤٠

ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به ﴾ تنظر إلى الأمّة الإسلامية نظرةً مستقلّة باعتبارها أمّة خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين الّذى جاء فى نعته قولُه عزّ من قائل[١] : ﴿ الّذين يتّبعون الرّسول النّبىّ الأمّىّ الّذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التّوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحلّ لهم الطّيّبات ويحرّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال الّتى كانت عليهم ﴾ وقولُه تعالى[٢] : ﴿ وما أرسلناك إلاّ رحمةً للعالمين ﴾ .

وفى الإمكان أن ننظر إلى الجزئيّة الكريمة : ﴿ ربّنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به ﴾ من زاوية الجزئيّة السّابقة كى نتبيّن رحمة الله سبحانه وتعالى الّتى شملت هذه الأمّة المسلمة أمّة نبىّ الرّحمة ، وكى نتبيّن فحوى قوله تعالى[٣] : ﴿ ومنهم من يقول ربّنا آتنا فى الدّنيا حسنةً وفى الآخرة حسنةً وقنا عذاب النّار ﴾ والمعروف أنّ هذا الدّعاء حبيبٌ إلى المصطفى ﷺ ونصح به أمّته ﷺ . وفى الإمكان كذلك أن ننظر إلى لفظ الطّاقة فى الجزئيّة الكريمة وأن نقف على معناه وأن نقارن بينه وبين الوُسْع الّذى تفضّل الله سبحانه وتعالى به علينا ابتداءً فلم يكلّفنا إلا ما هو فى وسعنا . لقد عرفنا أنّ الطّاقة عبارةٌ عن كامل قوّة المرء وقدرته . وحينما نسأل الله سبحانه وتعالى ألاّ يحمّلنا ما لا طاقة لنا به ، فذلك معناه أنّنا نسأل الله سبحانه وتعالى ألاّ يحمّلنا ما تعجز عنه قوّتنا وتنوء به قدرتنا . وبهذا يتبيّن أنّ النّقلة بين هذه الجزيئة الكريمة : ﴿ ربّنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به ﴾ وبين الجزئيّة الكريمة السّابقة . ﴿ ربّنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الّذين من قبلنا ﴾ يتبيّن أنّ النّقلة ليست كبيرة ، فالفجوة بين الإصر وبين الحمل الّذى لا يطيقه الإنسان وإن كانت موجودةً فهى ليست بالكبيرة ، فالتّدرّج المعنوىّ بين الجزئيّتين الكريمتين متحقّق . ويتجلّى فضل الله سبحانه وتعالى على هذه الأمّة حينما تتبيّن أنّ ربّ العزّة وهبها دون طلبٍ منها ولا سؤال أكبر من سؤالها ألا يحمّلها ما لا طاقة لها به حينما بيّن جلّ وعلا فى صدر الآية الكريمة أنّه لا يكلّف نفساً من النّفوس إلاّ وسعها ، أى ما تتّسع له قدرتها وقوّتها

---

(١) سورة الأعراف ١٥٧ (٢) سور الأنبياء ١٠٧

(٣) سورة البقرة ٢٠١

ويبقى وراء ذلك فضل قدرة وبقيّة من قوّة . ويظلّ هدف الجزئيّتين الكريمتين واحداً ، إذ تصل إليه الجزئيّة الكريمة الأولى عن طريق التّقرير : ﴿لا يكلّف الله نفسا إلا وسعها﴾ وتصل إليه الجزئيّة الكريمة الثّانية عن طريق الدّعاء . ومن البيّن أنّ ميدان الدّعاء أوسع ومداه أبعد .

ويترتّب على هذه الدّعوات الثّلاث دعواتٌ ثلاثٌ أخر ، وتتمّم كلّ دعوةٍ فى المجموعة الثّانية الدّعوة الّتى تقابلها فى المجموعة الأولى . قال تعالى : ﴿ واعف عنّا واغفر لنا وارحمنا ﴾ والمعنى أنّ هذه الدّعوة الأولى فى المجموعة الأولى : ﴿ ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ تتمّم معناها هذه الدّعوة الّتى تقابلها : ﴿ واعف عنّا ﴾ وهذه الدّعوة الثّانية : ﴿ ربّنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الّذين من قبلنا ﴾ تتمّم معناها هذه الدّعوة الّتى تقابلها : ﴿ واغفر لنا ﴾ وهذه الدّعوة الثالثة : ﴿ ربّنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به ﴾ تتمّم معناها هذه الدّعوة الّتى تقابلها : ﴿ واغفر لنا ﴾ وهذا القول الموجز بحاجةٍ إلى شيءٍ من البسط .

إنّه بالنّظر إلى هذه الدّعوات الثّلاث : ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا . ربّنا ولا تَحْمِلْ علينا إصرًا كما حملته على الّذين من قبلنا . ربّنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به ﴾ يتبيّن التّدرّج اللّطيف الدّقيق من الصّغير إلى الكبير إلى الأكبر . إنّ الاستجابة لدعاء عدم المؤاخذة بالنّسيان والخطأ قادت إلى درجةٍ رفيعةٍ من الدّعاء المستجاب بألاّ يحمل الله تعالى علينا إصراً كما حمله على الّذين من قبلنا . وهذه الدّرجة الرّفيعة من الدّعاء المستجاب قادت إلى درجةٍ أرفع من الدّعاء المستجاب كذلك ، بألاّ يحمّلنا الله سبحانه وتعالى ما لا طاقة لنا به . إنّه بالدّعوة الثّانية واستجابة الله تعالى عدم حمل الإصر على الأمّة المحمّديّة استقلّت هذه الأمّة عن سائر الأمم وانفردت بذاتها فلاءمتها الدّعوة الخاصّة بها المقصورة عليها بألاّ يحمّلها الله تعالى ، وهى أمّة الرّحمة لا أمّة العذاب ، ما لا طاقة لها به .

وإنّه بالنّظر إلى الدّعوات الثّلاث الأخر يتبيّن أنّها هى الأخرى تخضع لذلك التّدرّج اللّطيف الدّقيق . إنّ العفو المطلوب فى الدّعاء : ﴿ واعف عنّا ﴾ بمعنى ترك المؤاخذة بالذّنب أساساً . وبهذا يتبيّن التّلاحم العجيب بين معنى العفو وهو ترك المؤاخذة بشأن

القول : ﴿ واعف عنّا ﴾ وبين الدّعوة الّتى تقابلها فى المجموعة الأولى والّتى تعتبر مهيّئةً للثّانية المبنيّة عليها ومرشّحةً لها : ﴿ ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ .

أمّا طلب المغفرة فى القول : ﴿ واغفر لنا ﴾ فإنّه بمعنى ستر الذّنب وعدم فضح المذنب يوم القيامة على رءوس الأشهاد . وبهذا يتبيّن أنّ الغُفران أو الغَفْر مبنىٌّ على التّرك ومترتّب عليه ، فكلّ غفران عفو وليس كلّ عفو غفرانًا ، لأنّ ستر الذّنب إنّما يشترط ترك المؤاخذة عليه . ولا يشترط ترك المؤاخذة على الذّنب ستره فقد يكون ثمّة عفوٌ عن المذنب وإعلانٌ لذلك العفو على رءوس الأشهاد فلا يكون فى ذلك سترٌ للذّنب . وإنّه بالنّظر إلى طلب المغفرة بالقياس إلى الدّعوة الّتى تقابلها فى المجموعة السّابقة وهى عدم حمل الإصر يتبيّن التّلاحم بين الدّعوتين . وكما قال أبو حيّان[1] : « ومن آثار عدم حمل الإصر عليهم المغفرة » إنّ قبول توبة بنى إسرائيل من عبادة العجل مشروطٌ بقتلهم أنفسهم وقد رفع الله سبحانه وتعالى عن الأمّة المحمّديّة ذلك الإصر والثّقل أرشدها ربّها جلّ وعلا إلى ما هو أبعد من ذلك وهو سؤال المغفرة حينما يكون منها ذنبٌ وتقصيرٌ رغم التّخفيف ورفع الإصر .

أمّا طلب الرّحمة الّذى ختمت به الدّعوات الثّلاث بل الدّعوات السّتّ فلأنّ الدّعوات السّابقة كلّها تهيمن عليها الرّحمة فبقى أن ينطق بالرّحمة المفهومة ضمنًا ، ولأن طلب الرّحمة يقابل فى المجموعة السّابقة طلب عدم التّحميل لما لا يطاق ، فالرّحمة دليل استجابة الدّعاء : ﴿ ربّنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به ﴾ والرّحمة ثمرة استجابة الدّعاء ، والرّحمة مسك ختام الدّعوات السّتّ إنّ « من آثار عدم تكليف ما لا يطاق الرّحمة »[2] قال عزّ من قائل : ﴿ ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا . ربّنا ولا تحمل علينا إصْراً كما حَمَلْته على الّذين من قبلنا . ربّنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به . واعف عنّا . واغفر لنا . وارحمنا ﴾ .

إنّ هذا الدّعاء المستجاب بمثابة القيد الّذى يقيّد المسلم لله ربّ العالمين وقد وجد إحسان الله تعالى قيداً تقيّد به فعليه أن يقوم بما يجب عليه من إحسانٍ مقابل ذلك

---

(١) البحر المحيط ٢/٣٦٨

(٢) البحر المحيط ٢/٣٦٨

الإحسان من الله سبحانه وتعالى الغنىّ الكبير المتعال ، لأنّ ثواب طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ وهما الدّليل على الاعتراف بالنّعم والآلاء والشّكر للمنعم المتفضّل ، لأنّ ثواب الطّاعة عائدٌ إلى المطيع ، فالله سبحانه وتعالى هو الغنىّ ونحن الفقراء . ويترجم المسلم لله ربّ العالمين شكره لله تعالى على النّعم والآلاء بمزيد الطّاعة وبمزيد الدّعاء الّذى يتمثّل فى الجزئيّة الكريمة الأخيرة فى الآية بل فى سورة البقرة الكريمة : ﴿ أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ والمعنى : أنت يا إلٰهنا وإلٰه كلّ شىء ، أنت يا ربّنا وربّ كلّ شىء ، أنت أيّها المعبود بحق دون سواك ، أنت يا من ربّانا بنعمه وآلائه ويا من يمسك السّماوات والأرض أن تزولا ، أنت مولانا وسيّدنا ، أنت متولّى أمورنا ومدبّر شئوننا ، فانصرنا على القوم الكافرين باللّسان والسّنان ، فى ميدان الحجّة والبرهان وفى ميدان القتال . أنت يا الله مولى الّذين آمنوا ، ونحن عبيدك بنو عبيدك بنو إمائك ، أما الكافرون فأولياؤهم الشيطان الرّجيم والطّاغوت اللّعين . وإنّ من حقّ العبد أن ينصره سيّده ، ومن حقّ العابد أن ينصره المعبود بحقّ ، ومن حقّ المخلوق الطّائع الذّليل أن ينصره خالقه وخالق كلّ شىء العزيزُ الجبّارُ المتكبرُ . إنّا لنسألك يا إلٰهنا وإلٰه كلّ شىءٍ أن تنصرنا على عدوّك وعدوّنا وقد قلت فى كتابك العزيز(١) : ﴿ ذلك بأنّ الله مولى الّذين آمنوا وأنّ الكافرين لا مولى لهم ﴾ وقلت(٢) : ﴿ فقاتلوا أولياء الشّيطان إنّ كيد الشّيطان كان ضعيفاً ﴾ وقلت(٣) : ﴿ وكان حقّا علينا نصر المؤمنين ﴾ وقلت(٤) : ﴿ إنّا لننصر رسلنا والّذين آمنوا فى الحياة الدّنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ وقلت(٥) : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبّت أقدامكم ﴾ وقلت(٦) : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنّهم لهم المنصورون . وإنّ جندنا لهم الغالبون ﴾ .

إنّ طلب العباد من الله تعالى الرّحمة ، وهى محض فضلٍ من الله تعالى الّذى وسعت رحمته كلّ شىء يردف بتقرير هؤلاء العباد العبوديّة المطلقة لله تعالى الّذى من حقّه أن

---

(١) سورة محمّد ١١
(٢) سورة النّساء ٧٦
(٣) سورة الرّوم ٤٧
(٤) سورة غافر ٥١
(٥) سورة محمّد ٧
(٦) سورة الصّافّات ١٧١ ــ ١٧٣

يفعل بعباده ما يشاء . وإنّ ربّ العزّة الّذى وسعت رحمته كلّ شيءٍ والّذى لا يظلم مثقال ذرّة يرشد عباده إلى الدّعاء الّذى ينبّههم دائما إلى افتقارهم دائما وأبداً إلى رحمة الله تعالى وعونه وبخاصّةٍ فى مجال صراعهم مع الباطل الّذى سيستمرّ ما دام هناك حقّ وباطل : ﴿ أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ .

روى مسلم عن ابن مسعود الأنصارى قال قال رسول الله ﷺ : من قرأ هاتين الآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه . قيل : من قيام اللّيل ، وقيل : كفتاه من شرّ الشّيطان فلا يكون له عليه سلطان . وروى أنّ النّبىّ ﷺ قال : أوتيت هذه الآيات من آخر سورة البقرة من كنزٍ تحت العرش لم يؤتهنّ نبىٌّ قبلى . وهذا صحيح[١] وفى الحديث : لمّا نزلت هذه الآية فقرأها ﷺ قيل له عقب كلّ كلمة : قد فعلت[٢] رواه مسلم عن ابن عبّاس[٣] وعن ابن عبّاس قال : لمّا نزلت هذه الآية : ﴿ آمن الرّسول بما أنزل إليه من ربّه ﴾ قال : قرأها رسول الله ﷺ فلمّا انتهى إلى قوله : ﴿ غفرانك ربّنا ﴾ ، قال الله عزّ وجلّ : قد غفرت لكم . فلمّا قرأ : ﴿ ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ ، قال الله عزّ وجلّ : لاأحمّلكم . فلما قرأ : ﴿ واغفر لنا ﴾ ، قال الله تبارك وتعالى : قد غفرت لكم . فلمّا قرأ : ﴿ وارحمنا ﴾ . قال الله عزّ وجلّ : قد رحمتكم . فلمّا قرأ : ﴿ وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ . قال الله عزّ وجلّ : قد نصرتكم عليهم[٤] و « عن معاذ بن جبل أنّه كان إذا ختم البقرة قال : آمين »[٥] .

وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين : ﴿ سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون . وسلامٌ على المرسلين . والحمد لله رب العالمين ﴾[٦] .

---

(١) انظر تفسير القرطبىّ ١٢٤١ ، ١٢٤٢

(٢) الجلالين والكشّاف ٣٠٨/١ وتفسير ابن كثير ٣٤٣/١

(٣) تفسير ابن كثير ٣٤٣/١

(٤) تفسير الطّبرىّ ١٠٦/٣

(٥) تفسير ابن كثير ٣٤٣/١

(٦) سورة الصّافّات ١٨٠ ــ ١٨٢

هذا وكان الفراغ من كتابة تأمّلات فى سورة البقرة صبيحة يوم السَّبت الموافق للحادى والعشرين من شهر رجب الحرام عام سبعةٍ وأربعمائة بعد الألف من هجرة خاتم النّبيّين وأشرفهم محمّد بن عبد الله ﷺ . والله سبحانه وتعالى أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم وأن يتقبّله إنّه سميعٌ مجيب . والحمد لله ربّ العالمين .

مكّـة الكرّمـة

يوم الأحد ١٤٠٧/٧/٢١ هـ

المـوافق ١٩٨٧/٣/٢١ م

كتبه الفقير إلى عفو ربه

د. حسن محمّد باجودة

الخاتمة

أعان الله سبحانه وتعالى الّذى لا رادّ لفضله على دراسة سورة البقرة الكريمة المدنيّة ، أطول سور القرآن الكريم ، دراسةً بيانيّةً متأمّلةً فيما يزيد على الألفين من الصّفحات ، ولله وحده لا شريك له الحمد والمنّة .

وفى القسم الّذى يتألف من الآيات الخمس الأُول ، والّذى عنوانه : « الكتاب المعجز هدًى للمتّقين » وقفنا مليّاً عند مطلع السّورة الكريم « الم » وأشرنا إلى أنّ السّور الّتى افتتحت بالحروف المقطّعة تسعٌ وعشرون سورة ، وأنّ العلماء انقسموا فريقين تجاه هذه الحروف المقطّعة ، فذهب الفريق الأوّل إلى أنّ هذه الحروف فى أوائل السّور من المتشابه الّذى استأثر الله سبحانه وتعالى بعلمه فقال : الله أعلم بمراده به . وذهب الفريق الآخر الّذى يمثّله جمهور العلماء إلى أنّ هذه الحروف لها معانٍ علينا أن نجتهد فى البحث عنها . ومن أنفس الآراء فى هذا المضمار الرّأى الّذى يذهب إلى أنّ هذه الحروف المقطّعة فى أوائل السّور امتدادٌ للتّحدّى بالقرآن الكريم ، لأنّ فيها إيماءً إلى أنّ القرآن الكريم المعجز بمعناه ومبناه مؤلّفٌ كلماته من جنس هذه الحروف ، ولكنّ الإعجاز يكمن فى نظمه البديع ورصفه الرّفيع .

ومجموع الحروف المقطّعة أربعة عشر حرفاً يجمعها القول : نصّ حكيم قاطع له سرّ . ومن أنفع الدّراسات لهذه الحروف وأمتعها الّتى قام بها الباقلاّنى المتوفّى سنة ٤٠٣ هـ فى إعجاز القرآن . والزّمخشرىّ المتوفّى سنة ٥٣٨ هـ فى الكشّاف . واللّطيف أنّ كلّ السّور الّتى ابتدأت بهذه الحروف المقطّعة جاء فيها الانتصار للقرآن الكريم وذكره .

وفى الآية الكريمة التّالية تقرّر أنّ الكتاب العزيز لا ريب فيه وهدًى للمتّقين ، فثمّة ذكرٌ للقرآن الكريم وانتصارٌ له . وجاء بعد ذلك وصف أولئك المتّقين بأنّهم يؤمنون بالغيب ابتداءً ، والإيمان بالغيب أهمّ الجوانب وأشملها ، ويقيمون الصّلاة ، وهذا هو الجانب البدنىّ وممّا رزقهم الله تعالى ينفقون ، وهذا هو الجانب المالىّ . فينبغى أن يكون

الإنفاق من حلال الرّزق وطيّب الكسب . وهم كذلك يؤمنون بالكتاب العزيز الّذى أنزله الله تعالى على محمّد بن عبد الله ﷺ ، وبالكتب السّماوية السّابقة الّتى أنزلها الله تعالى على النّبيّين السّابقين . وهم أخيراً بالآخرة يوقنون . والآية الكريمة الأخيرة فى القسم تقرّر أنّ أولئك المتّقين على هدًى من ربّهم جلّ وعلا وأولئك هم المفلحون الفائزون فى الأولى والآخرة .

واللّطيف مجىء صيغ الفعل المضارع فى القول يؤمنون ، يقيمون ، ينفقون ، يوقنون . والزّمن المضارع مشعرٌ بالاستمرار والتّجدّد . وقد أوحى التّرتيب فى هذا النّسق للغيب والصّلاة والنّفقة ممّا رزق الله تعالى بدرجات الإلزام ومراتبه . فالإيمان بالغيب لازمٌ للمكلّف دائمًا . والصّلاة لازمةٌ فى أكثر الأوقات ، والنّفقة لازمةٌ فى بعض الأوقات .

وعلى غرار النّعوت الثّلاثة الّتى يتحلّى بها المتّقون والّتى نصّت عليها الآية الكريمة الثّالثة ، تنصّ الآية الكريمة التّالية على نعوتٍ ثلاثةٍ أخرى ، الإيمان بما أنزل على محمّد بن عبد الله ﷺ ، وما أنزل على النّبيّين السّابقين ، وهم بالآخرة يوقنون .

والقسم الّذى يتكوّن من الآيتين الكريمتين السّادسة والسّابعة وعنوانه : الّذين كفروا قال تعالى : ﴿ إنّ الّذين كفروا سواءٌ عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوةٌ ولهم عذابٌ عظيم ﴾ تقرّر الآية الكريمة الأولى فيه حال الّذين كفروا الّذين يستوى إنذار النّبىّ ﷺ وعدم إنذاره لهم . ويلاحظ تحوّل السّياق من المؤمنين المتّقين فى القسم السّابق إلى الكافرين المعاندين . والمعروف أنّ التّقابل فى الصّفات من دواعى التّرابط وتداعى المعانى . ونتبيّن فى الآية الكريمة تسلية النّبىّ ﷺ وتثبيت فؤاده ، فهى من ناحيةٍ تبيّن أنّ القوم لن يسلموا ، وهى من ناحيةٍ أخرى تبيّن أنّ دور النّبىّ ﷺ يقف عند البلاغ والإنذار بالقرآن الكريم . وفى الآية الكريمة الثانية جاء ترتيب القلوب والسّمع والأبصار ، وفق التّحوّل المطّرد من الضّعف إلى القوّة ، بناءً على مدى السّيطرة عليها . إنّ المرء أكثر تحكّمًا فى بصره ، ولهذا أمر الشّارع الحكيم الإنسان بأن يغضّ بصره عمّا حرّم الله تعالى ، بينما أمره بشأن سماع

ما يكره عن آيات الله تعالى مثلاً بأن يعرض عن الخائضين وبألاّ يقعد معهم . ودليلاً على ضعف السّلطة على القلب يتأخر فى الذّكر عن السّمع والبصر فى الآية الكريمة السّادسة والثلاثين من سورة الإسراء مثلاً . قال تعالى : ﴿ إن السّمع والبصر والفؤاد كلّ أولئك كان عنه مسئولاً ﴾ ودليلاً على أهميّة القلب بالقياس إلى السّمع والبصر ، ودليلاً على أهميّة السّمع بالقياس إلى البصر يتقدّم القلب على السّمع والبصر ويتأخّر البصر عنهما فى الآية الكريمة قال تعالى : ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوةٌ ولهم عذابٌ عظيم ﴾ .

وبعد الحديث عن المؤمنين فى أوّل السّورة فى خمس آيات كريمات ، والحديث عن الكافرين فى آيتين كريمتين اثنتين ، يتمّ التحوّل فى القسم التّالى إلى المنافقين الّذين يتكوّن القسم الخاصّ بهم من ثلاث عشرة آية ، من الثّامنة إلى العشرين وعنوانه : « المنافقون » وإنّ تأخّر الحديث عن المنافقين ينبّه إلى تأخّر وجودهم إلى ما بعد الهجرة وبعد معركة بدر الفاصلة يوم الفرقان . وفى الآية الكريمة الأولى يدّعى المنافقون الإيمان ويتناولونه من أقصى حدّيه ابتداءً وانتهاءً ، أعنى الإيمان بالله واليوم الآخر . ومن أقوى الأدلّة على إصرار الادّعاء تكرير حرف الباء فى القول : ﴿ وباليوم الآخر ﴾ ويكون فى الآية الكريمة تكذيبٌ فوريّ للقوم : ﴿ وما هم بمؤمنين ﴾ ويلاحظ مجيء الباء فى الرّدّ لتأكيد نفى الإيمان وذلك فى مقابل مجيء الباء على ألسنة المنافقين لتأكيد الادّعاء . وقد جاء ادّعاء الإيمان فى جملةٍ فعليّة ، أى أنّ الادّعاء منصبٌّ على فعل الإيمان ، ومن هنا كانت الجملة فعليّة مرتبطةً بالزّمن الماضى . أمّا نفى الإيمان عن المنافقين فقد جاء فى جملةٍ اسميّةٍ غير مرتبطةٍ بزمنٍ لذا فهى تفيد النّفى المطلق لادّعاء القوم الإيمان فى كلّ زمان . قال تعالى : ﴿ ومن النّاس من يقول آمنّا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ﴾ .

وبعد أن نفت الآية الكريمة عن المنافقين صفة الإيمان أثبتت لهم الآية الكريمة التّالية صفة النّفاق فى أبشع صورها قال تعالى : ﴿ يخادعون الله والّذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾ إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ المنافقين الّذين ادّعوا الإيمان وخدعوا المؤمنين يظنّون ـــ وقد أعمى الله تعالى أبصارهم ـــ يظنّون أنّهم يستطيعون أن

يخادعوا الله سبحانه وتعالى وأنّ يدّعوا الإيمان وألّن يُخْرج الله سبحانه وتعالى أضغانهم . والمعروف أنّ رب العزّة بيّن للمصطفى ﷺ الوسيلة الّتى يعرفهم بها وهى لحن القول الّذى نصّت عليه سورة محمّد ﷺ كما أنّ سورة براءة الّتى تسمّى بالفاضحة قد فضحت المنافقين وقد أعلم الله سبحانه وتعالى النّبىّ ﷺ أعيان المنافقين وكان حذيفة بن اليمان صاحب سرّ النّبىّ ﷺ فقد صرّح ابن حجر مثلاً فى فتح البارى (٣٢٣/٨) بشأن الحديث رقم ٤٦٥٨ وما جاء فيه عن المنافقين الّذين تحدّث عنهم حذيفة بالقول : « لم يبق منهم إلاّ أربعة » صرّح ابن حجر بالقول : « لم أقف على تسميتهم » وبشأن القول فى الحديث : « أحدهم شيخٌ كبيرٌ لو شرب الماء البارد وجد برده » يقول ابن حجر : « لم أقف على تسميته » والحقيقة أنّ المنافقين إنّما يخادعون أنفسهم لأنّ وبال المخادعة عائدٌ عليهم ومرتدٌّ إليهم وذلك بخِذلانهم عن حسن البصيرة . والعجيب فى أمر المنافقين أنّهم صفرٌ من أبسط درجات الشّعور فهم لتبلّد إحساسهم فى المعنويّات أشبه بذلك المتبلّد الشّعور الّذى لا يشعر بثيابه الّتى تلى شعر جسده . ويعمّق تبلّد إحساس المنافقين مجىء جملة يشعرون فى صيغة الزّمن المضارع الّذى يدلّ على الاستمرار والتّجدّد . والآية الكريمة التّالية تبيّن حقيقة الباعث لهم على الزّعم وعلى الخداع ، إنّه مرض القلب بالنّفاق والشّكّ والعياذ بالله ، وقد زادهم الله تعالى مرضاً إلى مرضهم وشكّاً إلى شكّهم وضلالاً إلى ضلالهم . وبما أنّ المنافقين يشتركون مع الكافرين فى صفة الكفر وكان نصيب الكافرين العذاب العظيم ، فقد استحق المنافقون ذلك العذاب العظيم لاشتراكهم مع الكافرين فى صفة الكفر ، كما استحقّوا زيادةً فى كمّيّة العذاب فى مقابل زيادتهم على صفة الكفر بصفة الكذب ، ومن هنا كان من نصيبهم العذاب الأليم الّذى يزيد على العذاب العظيم بأنّه عذابٌ مؤلمٌ موجع . قال تعالى : ﴿ فى قلوبهم مرضٌ فزادهم الله مرضاً ولهم عذابٌ أليم بما كانوا يكذبون ﴾ .

وفى الآية الكريمة التّالية : ﴿ وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنّما نحن مصلحون ﴾ تنبيهٌ إلى إصرار المنافقين على الكذب . إنّهم على علمٍ بأنّهم مفسدون فى الأرض ومع ذلك هم يزعمون بأنّهم مصلحون ، بل إنّهم يتبجّحون ، باستعمالهم

الجملة الاسمية الدّالّة على ثبوت الوصف لهم والمؤكّدة بإنّما ، يتبجّحون بالزعم بأن صفة المصلحين خلصت لهم . وإنّ فى ذكر الأرض تنبيهًا إلى أنّ الإنسان الّذى كرّمه ربّه وهيّأ له الأرض موطناً يسكنه ، ينتظر منه الإصلاح فى هذه الأرض لا الإفساد .

وفى الآية الكريمة التّالية : ﴿ ألا إنّهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ﴾ التّنبيه إلى أنّ المنافقين هم المفسدون فى الأرض حقّا . فعلى غرار نسبة المنافقين الإصلاح فى الآية الكريمة السّابقة إليهم بل حصره فيهم ، لذا كان تعبيرهم فى جملة اسميّةٍ مؤكدة بإنّما ، يجئ تكذيبهم فثمّة جملة إسميّة مؤكّدةٌ بأكثر من أداة . فثمّة أداة الاستفتاح « ألا » الّتى تدلّ هنا على التّحقيق لدخولها على النّفى ، وثمّة التّصدير بإنّ والمجئ بهُمْ وبالألف واللاّم الّتى تفيد الحصر عند بعضهم .

وفى الآية الكريمة : ﴿ وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن النّاس قالوا أنؤمن كما آمن السّفهاء ألا إنّهم هم السّفهاء ولكن لا يعلمون ﴾ تنبيهٌ إلى فطنة فريقٍ من المؤمنين الصّادق الإيمان لانحراف المنافقين عن الجادّة وخروجهم على الصّراط المستقيم . ويطلب هؤلاء المؤمنون ، وفيهم مؤمنو الأوس والخزرج أى الأنصار ، من المنافقين ، وهم من الأوس والخزرج ، أن يؤمنوا إيماناً صحيحاً كإيمان النّاس الخليقين باسم النّاس الصّادق الإيمان من المهاجرين والأنصار . ويكون من المنافقين الجواب الّذى يصحّ فيه القول : رمتنى بدائها وانسلّت ، الجواب الّذى يدلّ على سفههم وخُرْقهم لأنّهم ينزّلون أصحاب النّبىّ ﷺ منزلة السّفهاء . ولا أدلّ على سفه المنافقين من هذا السّفه الدّالّ على عمى بصيرتهم خاصّةً وأنّهم ينزّلون المؤمنين النّاصحين لهم المخاطبين لهم منزلة السّفهاء . يضاف إلى ذلك أنّهم وقد ادّعوا الإيمان من قبل يعترفون بالكفر الآن ويرفضون الإيمان . وقد أثبت الحقّ جلّ وعلا للمنافقين صفة السّفه ووسمهم بميسم الجهل وعدم العلم . وفى التّذييل هنا نُفى العلم عن القوم لأنّ كلامهم عن المؤمنين مصدره عدم العلم ، بينما نفى فى الآية الكريمة السّابقة الشّعور لأنّ ادّعاءهم الإفساد إصلاحا والأعمال القبيحة الّتى قاموا بها أمورٌ لا يقوم بها إلاّ فاقدو الإحساس من الصّبية ومن شاكلهم . وما قيل عن التّذييل هنالك يقال عنه هنا .

وفى الآية الكريمة : ﴿ وإذا لقوا الّذين آمنوا قالوا آمنّا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنّما نحن مستهزئون ﴾ يتبيّن فى القول على لسان المنافقين خطاباً للمؤمنين : « آمنّا » تعبير المنافقين المعتاد الخالى من الحرارة ، تمشياً مع اللّقاءات الّتى اعتاد عليها المنافقون والّتى تتمّ بطريق المصادفة . بينما يتبيّن من القول : ﴿ خلوا إلى شياطينهم ﴾ خلوة هؤلاء المنافقين برؤسائهم فى النّفاق والكفر الّتى تتمّ قصداً من المنافقين لذلك ، ويفهم ذلك من تعدّى خلا بحرف الجرّ إلى وليس بالباء لذا ضمّنت الجملة معنى انصرفوا وذهبوا قصداً . ويقرّر المنافقون لشياطينهم ابتداءً أنّهم معهم على الكفر ويضيفون إلى ذلك أنّهم إنّما يستهزئون بالمؤمنين ويسخرون منهم . وقد جاء زعمهم الإيمان فى صيغة الزّمن الماضى الدّالّ على المضىّ والانقضاء ، بينما جاء قولهم إلى شياطينهم فى جملتين اسميّتين تدلاّن على الثّبوت والاستمرار مؤكدتين .

وفى الآية الكريمة : ﴿ الله يستهزئ بهم ويمدّهم فى طغيانهم يعمهون ﴾ يعاقب الله سبحانه وتعالى المنافقين فسمّى جلّ وعلا العقوبة والجزاء باسم الذّنب . وهذا النّوع من الأسلوب يسمّى الازدواج أو المشاكلة أو مراعاة النّظير ويجىء ليزدوج الكلام فيكون أخفّ على اللّسان من المخالفة بينهما . والآية الكريمة تتألّف من شقّين الشّقّ الأوّل : ﴿ الله يستهزئ بهم ﴾ والمعنى أنّ وبال الاستهزاء راجعٌ إليهم وليس إلى المؤمنين لأنّ مصيرهم إلى النّار الّتى أعدّها الله سبحانه وتعالى لهم إن لم يتوبوا إلى الله تعالى توبةً نصوحا . وتجىء جملة « يستهزئ » فى صيغة الزّمن المضارع الدّالّ على حدوث الاستهزاء وتجدّده . والشّقّ الثّانى : ﴿ ويمدّهم فى طغيانهم يعمهون ﴾ مبنىٌّ على الشّقّ الأوّل ومترتّبٌ عليه . إنّهم يظنّون إمهال الله سبحانه وتعالى إهمالاً . وربّما أحدث لهم جلّ وعلا نعمةً كلّما أحدثوا ذنباً إلى أن يأخذهم جلّ وعلا أخذ عزيزٍ مقتدر .

وفى الآية الكريمة : ﴿ أولئك الّذين اشتروا الضّلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾ نكاد نتبيّن أسوأ الأحوال الّتى انتهى إليها المنافقون فى سلسلة الأحوال السّيّئة الّتى تقلّبوا فيها والصّفات القبيحة الّتى اتّصفوا بها . لقد استبدل المنافقون الضّلالة بالهدى بل إنّهم اشتروا الضّلالة بالهدى ، والمعروف أنّ المرء يشترى برأس ماله